محمد شهاب الدين الندوي

مشاهد الربوبية

في دنيا النبات

تأملات في بعض أسرار القرآن من الوجهة العلمية

من منشورات

الأكاديمية الفرقانية، بنجلور (الهند)

منشورات الأكاديمية الفرقانية رقم ٧٥

مشاهد الربوبية في دنيا النبات

بالعربية : الطبعة الأولى . . . . ٢٠٠٠ (بنجلور)
بالإنكليزية : الطبعة الأولى . . . . ١٩٨٦ (بنجلور)
بالإردية : الطبعة الأولى . . . . ١٩٨٥ (كراتشي)
الطبعة الثانية . . . . ١٩٨٦ (بنجلور)

Publishers & Distributors:
FURQANIA ACADEMY TRUST
82, 10th Main, 1st Cross, BTM 1st Stage, Bangalore-560 029 (India)

Tel: 91-80-6684161; Fax: 91-80-6682101
E-mail: furqania@vsnl.com; Internet: http://www.furqania.com

Typeset by: Jameel Nadvi at Furqania Graphics, Bangalore

مشاهد الربوبية في دنيا النبات

تأملات في بعض أسرار القرآن من الوجهة العلمية

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمان الرحيم

مقدمة

إن القرآن الكريم قطب الدين والشريعة وصحيفة ربانية اشتملت على مبادئ الأخلاق وقوانينها، أنزلها الله سبحانه وتعالى لهداية البشرية جمعاء في كافة مجالات حياتها العلمية والفكرية، وليمكن في كل عصر إصلاح عقائدها ونظرياتها وتقويم أعمالها وسلوكها. فأنزل على النبيّ الأمي صلى الله عليه وسلم صحيفة جامعة شاملة من جميع النواحي الدينية والشرعية والفكرية والعقدية لتتمكن بكل وجه من قمع القوى الباطلة في كل مجال الفكر والنظر، وتقدر على مواجهة العقائد المنحرفة والأعمال الضالة -التي تترك آثارا سيئة في الدين والأخلاق- بالدلائل العقلية والعلمية، وتأخذ بيد الإنسانية إلى الرشد والصلاح.

هذا هو الهدف الأساسي وهذه هي الغاية العظمى من تنزيل هذا الكتاب العظيم الفريد وتزيينه بألوان الأزهار وتوشيحه بنوادر الحكم والأمثال لتظهر فيه جوانب الهداية والإرشاد حسب متطلبات كل عصر ومصر. فضمن هذا الكتاب الباهر قضايا التكوين ومباحث الطبيعة في غضون الأمور التشريعية جنبا لجنب، كأن هذه الصحيفة الأخيرة للهداية والرشد من بين الصحف السماوية الأخرى صحيفة متكاملة جامعة لأمور التكوين والتشريع لا يوجد لها نظير، تدعو الناس إلى الله بالحكمة والموعظة

الحسنة وعلى طريقة مبصرة بحيث تعجز الكتب والصحف السماوية الأخرى عن الإتيان بأي مثال لها.

إن هذا الكتاب الذي بين أيديكم لا يعدو أن يكون لمحة خاطفة عن هذا الوجه البديع من القرآن، الذي يتجلى في بحثه في مسائل الدين والحكمة والعلم والفلسفة والأخلاق والسلوك، وفي حله عقد الفكر والنظر بإيجاز، ولكن بأساليب وكلمات معجزة مفحمة. وهذه الدراسة حينما تهتك حجب الضلالات الفكرية والإعتقادية التي ترتكز على الإلحاد والمادية، والتي قد صبغت بلون "الحقائق العلمية" بدلائل دامغة من ناحية، وتقدم من ناحية أخرى رسالة فريدة مبصرة للهدى والعرفان أمام العالم الإسلامي، وهي تبقى وقفة تأمل لسائر الدنيا عموما ولدنيا العلم خصوصا.

ومن أكبر ما يتميز به القرآن من البراعة الكاملة أن آياته رغما من إيجازها الشديد تكون من الجامعية والشمول بمكان يحتاج في شرحها وتفصيلها إلى الغوص في قواميس العلوم والمعارف، لأنه كلام من لدن حكيم عليم بصير، حشا أسراره الكامنة في كليات ومبادئ مجملة جدا، بحيث تعجز العلوم والفنون عن شرحها وتفصيلها، ويتحير عقل الإنسان مبهوتا مذهولا. وليس ما أقول من نوع القصص الروائية وليس يمتّ إلى الشعر، ولكنه حقيقة ثابتة، كما ستبرهن على ذلك دراسة الكتاب عند ما نأخذ أصل الموضوع.

وكل ما جاء في هذا الكتاب إنما هو تأملات وانطباعات هذا العبد الضعيف حصلت لي بعد دراستي لعلوم الطبيعة والأحياء مباشرة. وأنا

مكب على هذا الموضوع منذ أربعين سنة أو أكثر دراسة ومقارنة بين الحقائق والأسرار القرآنية والكشوف العلمية الحديثة. ومنهجي في ذلك أنني أدرس القرآن الكريم متفحصا ما هي الحقائق والمعارف التي يمكن استخلاصها من آياته الأبدية، التي تصلح لهداية العالم البشري إلى الصدق والصواب. فلما درست بعض الآيات الابتدائية من سورة الأعلى من وجهة النظر هذه وجدت فيها بحرا يموج بالدرر واللآلي، وتزخر بالأسرار والمعارف الإلهية. ولما ذهبت أقيدها في ضوء العلم والبيولوجيا تكوّن هذا الكتاب الذي بين أيديكم.

بنجلور (الهند) محمد شهاب الدين الندوي

الإعجاز الباهر للقرآن الكريم

إن القرآن الكريم كتاب أنزل رأسا لبيان القوانين الشرعية ومبادئ الأخلاق وأصول الدين، ولكنه يتضمن جميع عجائب الفطرة بألوانها ويذكر الأسس والقواعد التي تَشحذ الفكر والنظر كالدروس والعبر في تحقيق الهداية للنوع البشري. فالقرآن الكريم بهذا الاعتبار كتاب يزخر بالمعارف والحقائق لكثير من العلوم والفنون، لا تحد أسرارها ولا تنقطع عجائبها. فكلما يقرؤه المتضلع في علم من العلوم أو فن من الفنون بنظر غائر عميق ترتسم عليه ملامح عظمته وجلاله، ويقف متحيرا مشدوها بما ينكشف له من مصداقية هذا الكلام وحقانيته.

ومن الجوانب البديعة لإعجازه، والتي لا يوجد لها نظير أن القرآن الحكيم على الرغم من أنه كلام سهل بسيط وغير معقد يتساوى العالم والعامي في الاستفادة منه، يحمل في طياته من الحقائق الأبدية البعيدة ومن النتائج العلمية السامية ما لا يصل إليه الإنسان إلا بعد التفكير والنظر قرونا. كأن القرآن قد أودعت فيه رموز أساسية للعلوم والفنون المتنوعة. ولذلك عند ما يتعمق الماهرون في تلك العلوم بالنظر في هذه الصحيفة

الربانية فلا تتفتح عليهم أبواب الحقائق والأسرار فحسب، بل وتتجلى لهم جوانب عديدة للتوجيهات والهدايات الواردة من عند الله تعالى.

ومن روائع القرآن الكريم أن الآية الواحدة منه، التي تبدو للناظر العادي فيها ساذجة بسيطة، ولكنها تبدو للعالم زاخرة بكنوز الحقائق والمعارف. وأغرب من ذلك أن الآية نفسها تبدو للمتخصصين في العلوم العديدة مختلفة حسب اختلاف العلوم التي تخصص كل واحد منهم فيها. فكأنها باعتبار جامعيتها للعلوم المختلفة مجموعة من الحكم والمصالح التي لا يحدها الحصر، بل ويستطيع أن يأخذ منها كل واحد حسب وسعه وظرفه. وهذه ميزة تختص بكلام الله وحده، ولا يوجد لها نظير في كلام البشر وآدابه، كما يتجلى ذلك واضحا عند ما نتناول بعض الآيات من سورة الأعلى بالشرح والتفسير في هذا البحث ذاته.

والحق الذي لا يدع مجالا للجدل أن القرآن الحكيم ينطوي على غير واحد من الإشارات والكنايات التي تتعلق بالعلوم والفنون المختلفة، لا بد لفهمها من التعرض لهذه العلوم ومعرفة تفاصيلها. وكذلك جميع العلوم والفنون التي تأتي في حيز الوجود إلى يوم القيامة -وخاصة ما يتعلق بنظام الكون- وما يجتاز من مراحل البحث والتحقيق يمكن إدراج كل تفاصيلها تحت إشارات قرآنية. فكأن الإنسان سيمضي يفسر القرآن تفاسير متجددة ومتنوعة بكل ما ملك من قوة علمية وفنية، إلا أن القرآن الكريم لا تنتهي خزائن حقائقه ومعارفه. ولا يمكن للإنسان أن يبلغ من تفسيره حد الكمال. وهذا أحد الجوانب التي يشير إليها الحديث النبوي الشريف:

ولا تنقضي عجائبه.[(١)]

أهداف القرآن من كشف أسرار الكون

ومن الأهداف التي زين لأجلها القرآن بهذه الأسرار الكونية والمعارف الإلهية، أذكر هنا بعضا منها:

١- بيانا للناس بأن الذي خلق هذا الكون هو الذي نزل هذا الكتاب العظيم. ولو لم يكن ذلك لم يوجد بينهما انسجام وتوافق بهذه النسبة.

٢- ما ينكشف من الحقائق والرموز بعد إجراء الدراسات العميقة للقرآن والكون يؤيد المؤمنين ويشد أزرهم ويثبت حجة على الجاحدين والمنكرين.

٣- أن تتجدد الأدلة والبراهين الإلهية وفقا لما يقتضيه كل عصر وتبدأ عملية تدوين علم الكلام من جديد، لإحقاق الحق والفكر الصحيح وإبطال الأفكار المنحرفة الزائغة.

٤- استمرارية التوجيه والهداية لكل جيل في جميع أدواره وعصوره حتى تقوم الساعة.

وعلى كل، فان الدراسة العميقة والتفكير الغائر والتأمل المتأني في القرآن والكون توصل الإنسان إلى وجود العليم البصير وتشعره بأن الذات الإلهية السامية لا يعزب عنها مثقال ذرة في السماوات والأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، ولا يغيب عنها شيء في هذا الكون المليء بأنواع

---

(١) - رواه الترمذي، باب ما جاء في فضل القرآن.

العجائب. وهذه وما يشاكلها هي الأسباب الرئيسية والأهداف الأساسية التي جعل الله سبحانه وتعالى لتحقيقها هذا الكتاب أمينا وحويا للأسرار المختلفة الخفية في غضون الكون ونظامه. قال جل وعلا:

﴿لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم، أفلا تعقلون.﴾ الأنبياء: ١٠

﴿ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء.﴾ النحل: ٨٩

﴿قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض.﴾ الفرقان: ٦

﴿ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض.﴾
النمل: ٢٥

﴿وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين.﴾ النمل: ٧٥

﴿خلق الله السماوات والأرض بالحق، إن في ذلك لآية للمؤمنين.﴾
العنكبوت: ٤٤

﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق، أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد.﴾ حم السجدة: ٥٣

كانت هذه الآيات كلها تقتضي أن يقوم الناس بالتفكير والروية في مظاهر الكون وتتقدم علوم الطبيعة ثم ينجلي صدق هذا الكلام العظيم في ضوء الكشوف والبحوث حتى يكون من أسباب العبرة وجلاء للبصيرة في العالم الإنساني.

ولا يعزبن عن البال أن فهم القرآن وإدراك رموزه لا يتوقف في الظاهر على فهم العلوم الحديثة وبخاصة علوم الطبيعة. ولكن الحق الذي لا مراء

فيه أن النظرة الغائرة في كلام الله تعالى من حيث أنه كتاب الهداية والرشد في كل زمان بعد البراعة في هذه العلوم تكشف إعجازه جليا، وتظهر للعيان غرائب الأسرار ودقائق المعاني التي لا توجد في أي كلام آخر. وهذه ميزة بارزة من مزايا القرآن الكريم.

ومما يجدر هاهنا أن لا يغيب عن الذهن أن هذا البحث لا يتعرض لتطور الآراء والنظريات العلمية وتغيراتها. ثم على العكس من ذلك لا يمكن أن يكون محور الاستدلال إلا تلك الحقائق التي قد مرت عليها التجارب والمشاهدات عبر عصور وقرون، وهي التي يطلق عليها في لغة العلم "قوانين الطبيعة" (LAWS OF NATURE)، وفي لغة القرآن كلمة "السر" كما ورد ذكرها سابقا في آية سورة الفرقان، وقد ورد تفسيرها في الآيتين ٢٥ و ٧٥ من سورة النمل بـ الخبء و غائبة، وهذه الألفاظ الثلاثة متقاربة في المعنى. فالخلاصة أن هذه الأسرار الخفية في الكون ونظامه هي التي لا تزال تبرز في كتاب الله في صورة *ولا تنقضي عجائبه* بعد التفكير ودقة النظر. قال الله سبحانه:

﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء.﴾ الأنعام: ٣٨

﴿وكل شيء فصلناه تفصيلا.﴾ بنو إسرائيل: ١٢

﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون.﴾
الزمر: ٢٧

﴿ولقد صرفنا في هذا القرآن ليذكروا.﴾ بنو إسرائيل: ٤١

والغرض الرئيسي من بيان هذه الحقائق وأمثالها -فيما يتعلق بالكون ونظامه- عند الشيخ أحمد بن عبد الرحيم المعروف بالشاه ولي الله الدهلوي، هو "التذكير بآلاء الله".[٢] يعني أنه يذكر البشرية بأنواع من نعمه وآلاءه، ليُقلع الطاغي المتكبر عن غيه ويسلك مسلك العبودية والاستسلام والخضوع أمام الله.

وبهذه النظرة إذا استعرضنا آيات مختلفة من القرآن الكريم التي تتحدث عن نظام الكون نرى فيها بحرا يموج بالعلوم والمعارف، ومنبعا تتشعب منه الحقائق المستجدة حتى تأتي عرضة الأعين وفق العصور والأزمان المتغيرة، والتي يمكن أن تلعب دورا هاما في رد الإنسان المتكبر المختال إلى سواء السبيل، وفي مواجهة المادية واللادينية الشاملتين في العصر الحاضر.

نرجع بعد هذه التوطئة إلى رأس الموضوع ونأخذ في شرح وتفسير بعض الآيات الكريمات الباهرات من سورة الأعلى التي تندرج تحت هذا الموضوع، في ضوء الكتب الموثوق بها من علم اللغة والمعاجم وكتب التفاسير، وفي ضوء ما وصلت إليه علوم الطبيعة مؤخرا. وسيبدو للناظر والمستقرئ ما يخبئه الكتاب المنزل من العزيز الحكيم من الدرر الرطبة والجواهر النفيسة لإرشاد النوع البشري وإخراجه من الظلمات إلى النور.

---

(٢) - الفوز الكبير، العلوم الخمسة في القرآن الكريم.

علم الأحياء في نظر القرآن الكريم

علم الأحياء (BIOLOGY) يطلق على فرع من علوم الطبيعة ويدور حول البحث فيما يتعلق بالحيوان والنبات، من نشأتهما وبنيتهما، ويدرس ما يتصل بأحوالهما الطبيعية وكوائفهما الفطرية.

فيشمل هذا العلم مليونا ومأتي ألف من بين حيوان ونبات مما يوجد على هذه الأرض دراسة وبحثا.[٣] ثم تتوزع هذه حيوانا ونباتا إلى عدة مراحل -تسهيلا للدراسة- نظرا إلى الخصائص المشتركة فيما بينها. وإن علم الأحياء علم شامل يتفرع إلى فروع كثيرة، وقد صدر عدد محترم من الكتب على كل من هذه الفروع وستأتي تفاصيل هذا المبحث مسهبة فيما بعد -إن شاء الله-. ولندرس هذه الآيات الكريمات من القرآن الكريم -آخذين هذا الإجمال بعين الاعتبار- التي تحمل الدلالة على علم الأحياء وعلى كل صنف من أصناف العلوم الطبيعية بصورة تتحير بها العقول. قال الله سبحانه وتعالى:

﴿سبح اسم ربك الأعلى، الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى،

---

(٣) - الحيوانات تبلغ ثلثي هذا العدد المذكور، بينما النباتات تحتل الثلث الباقي:
راجع: *Asimov's Guide To Science*, Vol. 2, Pelicon Books, London, 1978, P. 30

والذي أخرج المرعى، فجعله غثاء أحوى. ﴾ الأعلى: ١-٥

ومفهوم هذه الآيات الذي يتبين بعد الرجوع إلى كتب التفسير العديدة والنظر الدقيق في غضونها يمكن أن يعبر عنه بهذه الكلمات: "سبح اسم ربك الأعلى، وأغدق عليه الحمد والثناء، الذي خلق هذا الكون، فسوى نظامه الجسدي، والذي قدر لكل مظهر من مظاهر الطبيعة قانونا طبيعيا يخصه، ووفّق كلا من هذه المظاهر ليسير وفق هذا النظام والقانون المحدد".

وحقا، إن هذه الآيات الموجزة تحوي في حواياها براهين قاطعة على وحدانية الله تعالى وربوبيته الكاملة. وقد استدل هنا على ربوبيته بجميع الكائنات الحية وكافة المظاهر الطبيعية. وهذه الكلمات المحددة إنما هي منطلقات وعناوين بارزة لعلوم كثيرة على اختلاف مناحيها، كما أنها نماذج رائعة للبلاغة المعجزة التي يتميز بها القرآن الحكيم. وإليكم شرح الألفاظ والكلمات التي تدركون من خلال ذلك ما قلنا: ففي الآيتين الكريمتين (٢-٣) حذفت مفاعيل كل من خلق و سوى و قدر و هدى، واكتفى بذكر الأفعال، وهذا مما يدل دلالة واضحة على أنه لم يقصد في هذه الآيات الإشارة إلى نوع خاص أو مخلوق معين بل قصد الشمول لكل نوع من خلق الله تعالى، سواء في ذلك الإنسان والحيوان، وسواء كان من جنس النبات أم من جنس الجماد، وسواء ينتمي إلى الأرض أو الفلك، من المادة كان أم الطاقة. وبأسلوب آخر هذا الإبهام يحيط بكل نوع يصح أن ينطبق عليه مدلول هذه الأفعال الأربعة؛ خلق، سوى، قدر، و هدى. وهذا

المفهوم واضح وبين ، بريء عن التعقيد والتأويل ، وموافق لقواعد النحو وأصول الأدب .

ويدعم هذا المفهوم ويؤيده تأييدا كاملا ما جاء في مراجع كتب التفسير . وأذكر في هذا الصدد بعض النماذج منها :

أورد المفسر الكبير شهاب الدين الآلوسي البغدادي : "*ومفعول ﴿خلق﴾ محذوف ، ولذا قيل بالعموم ، أي الذي خلق كل شيء*" .(٤)

وذكر العلامة جار الله الزمخشري في تفسيره "الكشاف" : "*أي خلق كل شيء*" .(٥)

وقال ابن كثير : "*أي خلق الخليقة وسوى كل مخلوق في أحسن الهيئات*" .(٦)

وقال صاحب "التفسير الكبير" : "*وقوله ﴿خلق﴾ يحتمل أن يريد به الناس خاصة ، ويحتمل أن يريد به الحيوان ، ويحتمل أن يريد به كل شيء خلقه*" .(٧)

وقال الشيخ أشرف على التهانوي : *﴿الذي خلق﴾ كل شيء ، ﴿فسوى﴾ خلقه على وجه مناسب* .(٨)

---

(٤) - روح المعاني ، ٣٠/ ١٠٤ ، بيروت .

(٥)- الكشاف ، ٤/ ٢٤٣ ، تهران .

(٦) - تفسير ابن كثير ، ٤/ ٥٠٠ ، عيسى البابي الحلبي ، مصر .

(٧) - التفسير الكبير ، ٨/ ٢٧٩ ، المطبعة العامرة ، مصر .

(٨) - بيان القرآن : اشرف علي التهانوي ، ١٢/ ٩٢ ، تاج ، دلهي .

فإن هذه الكلمات الأربع قصد بها مفهوم عام شامل، ويصح إطلاقها على كل شيء وعلى جميع الخلق في العالم. وبحق، إن هذه الألفاظ تتجلى بها عدة مزايا مخلوقاته سبحانه وتعالى التي هي من جهة العموم وإن كانت مشتركة بين المخلوقات والموجودات كلها إلا أنها تختلف إلى حد كبير فيما بينها ببعض صفاتها وخصائصها. وعند دراستها والنظر فيها تظهر خلاقية الخالق الأعلى وصنعه العجيب، وتنكشف براعته الكاملة في الإبداع والابتكار. وعلى ذلك فدراسة مخلوقاته سبحانه والتفكير في موجودات الكون تحتل مكانة كبيرة من الأهمية، وتزود الإنسان بكثير من البصائر. وعن طريق هذا الاستعراض تتبين حكمة خلقه تعالى ومظاهر ربوبيته العجيبة، وتبرز دلائل مدهشة وبراهين ساطعة على رحمته ورأفته بخلقه. كما يتضح ذلك من دراسة مشبعة لعلوم الطبيعة، وبوجه خاص علم الأحياء. وتحقيقا لهذا الهدف نأخذ في شرح موجز لهذه الكلمات وتفسيرها على ما تقتضيه مطاليب العصر.

نظام الخلق

﴿الذي خلق﴾ ، معنى الخلق إيجاد الشيء بعد أن لم يكن. ونذكر ما ورد في "لسان العرب" من شرح وتفصيل لهذا اللفظ :

"والخلق في كلام العرب ، ابتداع الشيء على مثال لم يسبق إليه ، وكل شيء خلقه الله فهو مبتدئه على غير مثال سبق إليه ، ﴿ألا له الخلق والأمر﴾ . قال أبو بكر ابن الأنباري : "الخلق في كلام العرب على وجهين : أحدهما الإنشاء على مثال أبدعه ، والآخر التقدير. وقال في قوله تعالى : ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ معناه أحسن المقدرين. قال الأزهري : ومن صفات الله عز وجل ، الخالق والخلاق وهو الذي أوجد الأشياء جميعها بعد أن لم تكن موجودة ، ولا تجوز هذه الصفة بالألف واللام لغير الله عز جل" .(٩)

وجاء في مفردات القرآن :

"الخلق أصله التقدير المستقيم ويستعمل في إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء ، قال : ﴿خلق السماوات والأرض﴾ أي

---

(٩) – لسان العرب : ابن منظور الأفريقي ، ١٠/ ٨٥ ، بيروت .

أبدعهما بدلالة قوله ﴿بديع السماوات والأرض﴾ . ويستعمل في إيجاد الشيء من الشيء نحو: ﴿خلقكم من نفس واحدة﴾ و ﴿خلق الإنسان من نطفة﴾ و ﴿خلق الإنسان من سلالة﴾ و ﴿ولقد خلقناكم﴾ و ﴿خلق الجان من مارج من نار﴾ . وليس الخلق الذي هو الإبداع إلا لله تعالى، ولهذا قال في الفصل بينه تعالى وبين غيره ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون﴾ . (١٠)

الخلاصة أن لفظ "الخلق" يرد للدلالة على ثلاثة معان .

١- إيجاد الشيء بدون مثال سبق إليه .

٢- استمرارية إيجاد أشياء من مادة سبق إيجاده على مثاله .

٣- التقدير .

كما سبق أن المعنى الأول على قول الإمام الراغب الأصفهاني رحمه الله صفة خاصة بالله تعالى لا شريك له سبحانه في ذلك ولا ند من خلقه . وبالنظر الدقيق يتبين أن المعنى الثاني كذلك لا يمكن أن يشاركه فيه ولا يضاهيه أحد دونه . فان الإنسان اليوم قد أكمل من اكتشافه ثمانمائة ألف حيوان وأربعمائة ألف نبات على هذه المسكونة، وصنف في خصائصها الفرعية وأحوالها الطبيعية وصفاتها المختلفة كتبا كثيرة . ولكنه لم يستطع أن يدّعي بأنه يتمكن من خلق أي نوع من أنواعها .

---

(١٠) - المفردات في غريب القرآن للأصفهاني، ص ١٥٦ ، دار المعرفة، بيروت .

وقد خلق الله الخلاق العليم مئات الألوف من أنواع الأحياء في هذا الكون دون مثال سبق أو نظير تقدم. ولا يزال الله يكسو لباس الوجود ملايين من أفراد تلك الأنواع بجميع خصائصها النوعية وصفاتها الفردية. وليس سوى الله سبحانه من يأتي بمثل هذه الصنائع الباهرة التي تفقد النظير وتترك العقول حيارى، فان التحدي الذي وجهه القرآن الكريم إلى الناس كافة قبل أربعة عشر قرنا كله صادق ثابت على مر الدهور:

﴿إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له.﴾

ومما يجب أن يعتبر به أن العلماء الطبيعيين بأجمعهم لايقدرون على أن يوجدوا مادة حيوية صغيرة فضلا عن أن يخلقوا ذبابا أو بعوضة:

﴿إن ربك هو الخلاق العليم.﴾

الخلاق" من صيغ المبالغة معناه الخالق خلقا بعد خلق. دع عنك نوعا من الخلق بل هنا مئات الآلاف من أنواع المخلوقات خلقها الله سبحانه كأمثلة ونماذج، ففي دنيا النبات والحيوان مليون ومائتا ألف حي من أحياء صغيرة ذات خلية واحدة لا ترى إلا بالمجهر إلى حيوانات كبيرة ضخمة، وكأن هذه الأنواع كلها إنما هي نماذج خلق الخلاق القدير. فإذا كان هنا مدّع في عالم الطبيعة يدّعي الخلق أو يزعم أنه يتمكن من الإتيان بمثله، فعليه أن يختار من أنواع هذه الخلائق التي تبلغ مئات الألوف أدنى وأحقر نموذج فيخلق مثله خلقا آخر أو ما يشابهه.

الاستنساخ لا يشابه خلق الله

وأما الاستنساخ (Cloning) الذي هو توليد "مزدوج حيواني" توليدا

صناعيا من الخلية، والذي أنجزه العلماء الطبيعيون في صنعهم في المعامل مؤخرا، بأن انتزعوا من الخلية الواحدة نعجة كاملة صناعيا بدون العمل الجنسي, فهو ليس بخلق ولم يصبحوا خالقين. لأنهم لم يقوموا بهذا العمل من العناصر الميتة أو التراب. بل إنهم استعملوا في ذلك خلية من الخلايا التي خلقها الله تعالى. فلا يستحق الإنسان أن يكون خالقا ولا يمكن أن يرتقي إلى مرتبة الخالق. فإن الله تبارك وتعالى يخلق الخلق بغير مثال سابق وهو بديع السماوات والأرض. ولله المثل الأعلى في السماوات والأرض. وهو الواحد القهار. فلا شريك له في الخلق والأمر.

وعلى كل فإن الإنسان قد درس نواميس الفطرة وشاهدها عن كثب. ثم حاكاها في المعمل وهو لايعلم داخل هذه الخلية وأسرار ماكينتها، فهو محاك فقط ليس بخالق ولا بعالم.

قضية طفل الأنبوب

وكذلك قضية "طفل الأنبوب" الذي يبدو بالظاهر أعجوبة من أعاجيب العصر. وهي أيضا لاتخرج عن قانون الفطرة ونظام الطبيعة. والذي أنجزه الإنسان المعاصر في هذا المجال لا يعدو أن قام بدراسة تطبيقية لتكون الجنين وأطوار نشأته في رحم الأم ثم تكييف الأنبوب بالأحوال الطبيعية عن طريقة صناعية حتى يتم هذا الفعل خارج رحم المرأة مثلما يكون في داخل الرحم، فظهرت نتيجة مماثلة. ولكن ذلك لا يدل على خالقيته لا من بعيد ولا قريب ولا على أي فضل في هذا المضمار. لأنه يبقى -كما كان قبل- جاهلا محضا وغمرا عن الجهاز الداخلي لهذا النظام الفطري، وغير عاثر على

العلل والأسباب الكامنة في عملية الخلق، حتى إنه لم يعرف ما هو العمل الحقيقي للمادة المنوية وجرثومتها (SPERMATOZOA)، جرثومة شبه الحية كيف تشكلت في صورة الإنسان؟ كيف تتكون الخلايا؟ كيف تعود بنفسها عفوا إلى النشأة في أشكال هندسية بطريقة منتظمة؟ ثم كيف حلت فيها الروح وتمت مظاهرها من العقل، والوجدان، والقوى المدركة، والحواس، والذاكرة؟ وكيف تعمل هذه المظاهر؟ تساؤلات كثيرة لا يحصرها العد، يعجز الإنسان عن الإجابة عنها. فكيف يمكن أن يتصور من الكائن الجاهل الذي لا علم له بهذه الحقائق مطلقا أن يكون خالقا. فالخالق هو من يعرف كل شيء. ويعرف كل قطعة في ماكينته التي اخترعها. وكان من الممكن أن يفرض ذلك لو كان منه الإحياء من عناصر ميتة بدون مادة المني التي أخذها من الرجل والمرأة. وليس مثال التوليد عن طرق الصناعة إلا كما أن الزارع يحرث الأرض ثم يسقيها بعد أن يبذر فيها البذور، ثم يأتي دور الربوبية فتعمل عليها. فكما أن الفلاح لا يصح أن يسمى خالقا كذلك لا يصح تماما أن يسمى القائم بعملية التوليد الصناعي خالقا:

﴿أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم، قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار.﴾ الرعد: ١٦

ونشاهد في القرآن الكريم أنه اهتم بعناية بالغة بذكر صفة الخلق في سياق رد الإشراك بالله، وذلك يحمل في طياته معنى دقيقا، ونرى أهميته وقيمته في العصر الحديث أكبر وأوضح مما كان في العصر القديم:

﴿واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون، ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا. ﴾

الفرقان: ٣

وفي رد الإشراك بالله آيات كثيرة في القرآن الكريم تجتث جذور كل ضرب من ضروب الانحرافات الفكرية الحديثة بشمول الضلالات القديمة.

علم الأحياء والقرآن الكريم

عصارة القول أن الله سبحانه وتعالى لم يكن له شريك أو ندّ في القديم ولن يكون في المستقبل إلى أبد الآباد. وبأسلوب آخر، لن يستوي الخالق والمخلوق، الخالق هو الخالق بكمال صفاته وجلالة شأنه، والمخلوق له ما أودع الله له، ولا يسعه أن يكون خالقا أو يبلغ حدا أدنى من صفة الخلق، وإن قطع أشواطا بعيدة أو بلغ ذروة الكمال من التقدم والتطور والرقي. وهذا الكون بجميع ما فيه خالقه واحد، وسيبقى دوما متفردا بصفاته وحده. ولذلك قال تعالى:

﴿سبح اسم ربك الأعلى، الذي خلق فسوى﴾

فان استمرارية الخلق لأنواع الأحياء بدون أي انقطاع، وظهور الأشخاص والأفراد النوعية بجميع خصائصها النوعية على وجه الدوام، ليس ذلك إلا نظاما مدهشا للغاية لا يتصور وجوده أبدا إلا بذات قدرة جبارة.

وفي الفقرات والكلمات التالية بيّن الله سبحانه بعض خصائصه ومميزاته في صفة الخلق التي هي بمثابة دلائل وبراهين دامغة ضد الشرك والاستسلام للمظاهر وضد الإلحاد والمادية المفحشة، والتي تسد منافذ الضلالات الفكرية.

والحق أن الإنسان في هذا الكون له اعتباران مختلفان: فتارة يبدو مخيرا بذاته وأخرى أنه عاجز. فهو يسخر القمر والنجوم، ويجعل من الأفلاك ممرا لنفسه في جهة، ولكن لا يستطيع أن يخلق شيئا حقيرا تافها حتى الذباب والبعوضة في جهة أخرى. بل إنه لعاجز عن إدراك ماهية الحياة وفهم حقيقتها. كأنه جاهل عن أوليات الخلق.

نظام التسوية

قال تعالى: ﴿الذي خلق فسوى﴾. معنى "التسوية" هو تعديل الشيء وتمهيده وتهذيبه وتقويم الاعوجاج منه، وما إلى ذلك.

وفي القاموس المحيط: "سوّاه تسوية وأسواه: جعله سويا".[11]

"والتسوية" مأخوذة من "سوّى" الذي يطلق على كمال الاستقامة في الجسم والاعتدال، وتعرّى الشيء عن كل إفراط وتفريط، ووقوعه في الوسط، كما يقال "مكان سوي".[12]

"مكان سواء"، أي متوسط بين المكانين".[13]

"و"مكان سوى" و"سوى" بكسر السين وضمها، و"سواء" أي عدل ووسط فيما بين الفريقين".[14]

"استوى الشيء: اعتدل".[15]

---

(١١) - القاموس المحيط: مجد الدين الفيروزآبادي، ٤/ ٣٤٥، مصر.

(١٢) - نفس المرجع السابق.

(١٣) - لسان العرب، ١٤/ ٤١٢

(١٤) - نفس المرجع، ١٤/ ٤١٤

"ورجل سوي: استوت أخلاقه وخلقته عن الإفراط والتفريط" .[١٦]

"وكذلك غلام سوي: مستوي الخلق، لا عيب فيه ولا داء" .[١٧]

"وسواء الجبل: ذروته، وسواء النهار: منتصفه، وليلة السواء: ليلة أربع عشرة" .[١٨]

وكلمة "التسوية" تصلح لأن تتضمن جميع هذه المعاني التي تقدمت. لأن تعدية الفعل الثلاثي المزيد تنتقل من الفعل الثلاثي المجرد بموجب القاعدة الصرفية. ومن خواص باب التفعيل أن يدل على التكثير والمبالغة أيضا. ومعنى التكثير والمبالغة هو الزيادة في المعنى المصدري، مثل جال وجول، وطاف وطوف بالواو المشددة في كليهما، ويستعملان للدلالة على الكثرة في التجوال والتطواف.

فالذي استخلصناه من هذا البحث أن معنى "التسوية" هو الاستقامة في الجسم من كل ناحية، والاعتدال التام والبراءة من كل عيب ونقص، لا أن تكون إحدى اليدين ثماني عشرة بوصة، والثانية منهما خمسا وعشرين

---

(١٥) - نفس المرجع السابق.

(١٦) - المفردات في غريب القرآن، ص ٢٥٢.

(١٧) - المنجد، ص ٣٧٧، بيروت.

(١٨) - لسان العرب، ١٤/ ٣١٦

بوصة، أو إحدى العينين قرصا صغيرا والأخرى كرة كبيرة، أو أن يكون عظم في الجسد قصيرا والعظام الأخرى طويلة. بل وكل عضو من أعضاء الإنسان يكون متساويا ومتناسبا ومعتدلا فيما بينها بصورة تثير الحيرة والاستعجاب. ومن نوع التناسب والاعتدال أن أعضاء الجسم كلها ونظام تكوينها يوجد فيها توافق كامل وانسجام تام من حيث العموم. ومن هذه النظرة أيضا يثبت وجود خلاق حفيظ رقيب على العالم كله. وإن علوم الطب والطبيعة تعجز عن شرح هذه الكلمة شرحا وافيا محيطا.

تقدم في سابق ما قلنا أن ثمان مأة ألف فصيلة تعيش في عالم الحيوان، من حي ذي خلية واحدة (PROTOZOA) و (PROTOFITA) إلى فيل ضخم الجثة و"وهيل" (WHALE) أضخم الحيتان. وكل من هذه الأنواع بنيتها وخلقتها ونظام جسمها المعقد يدل على دقة بالغة في الصناعة وعبقرية آخذة فيها، كما أن كل ذلك يدل على نظام بديع مدهش. وأنواع الأحياء هذه تعد -بما يختلف نظام بنيتها بعضها عن البعض الآخر- من غرائب دنيا الحيوان، لا تتضح باستقرائها حقيقة نظام التسوية فحسب، بل وتتفتح آفاق بعيدة لرحمانية الله تعالى وربوبية الخلاق العليم.

﴿الذي خلق فسوى﴾ مخلوقه، جعله متناسب الأجزاء غير متفاوت."(١٩)

"أي جعله متساويا، وهو أصل معناه، والمراد فجعل خلقه كما تقتضيه حكمته سبحانه في ذاته وصفاته، وفي معناه ما قيل: أي

---

(١٩) - تفسير الجلالين، ٢/ ٢٥٩، مصر.

فجعل الأشياء سواء في باب الإحكام والإتقان، لا أنه سبحانه أتقن بعضا دون بعض."[٢٠]

وقد أجاد الشيخ الطنطاوي في تفسير هذه الآيات في ضوء الحقائق الطبيعية التي وصل إليها العلم الحديث، وأنار جوانب عديدة من هذا الباب بأسلوب توضيحي رشيق. فقال:

﴿الذي خلق فسوى﴾ أي خلق كل شيء فسوّى خلقه تسوية ولم يأت بالمخلوقات متفاوتة غير ملتئمة، بل جعلها ذات إحكام واتساق دالين على صدورها من عالم حكيم، وإلا فكيف نراه:

١- جعل جمال الوجه في أربعة أعضاء: الفم، والأنف، والعينين، فان تلاءمت كان الجمال وإن لم تلتئم كان القبح.

٢- وجعل الجمال الباطني في أربع أيضا: الحكمة، والعفة، والشجاعة، والعدل، فان تمت فهو جميل الخلق، وإن لم تتم فهو سيء الخلق.

٣- وكيف جعل عظام الأصابع دقيقة، لكل إصبع ثلاثة أنامل موضوعة بدقة بحيث تمكنه من جعلها مجتمعة لدفع المهاجم، منحنية لإمساك آلات الصناعة والزراعة والحرب، ومنبسطة ليحمل عليها، ومنقبضة بعض القبض لتكون له مغرفة أو مجرفة.

---

(٢٠) - روح المعاني، ٣٠/ ١٠٤، بيروت.

٤- وجعل الأظافر لحفظ أطراف الأصابع وليتمكن من ضبط دقائق المادة المتساقطة .

٥- ولم كان "السنا المكي" و "زيت الخروع" مسهلين للإنسان .

٦- ولم كان الورد ملائما لحاسة الشم في الإنسان .

٧- ولم كان القطن نافعا لملابس الإنسان ، ولم كانت الطيور النافعة كأبي قردان تأكل الدود من الحقول التي فيها نبت غذاء الإنسان . وأين المناسبة بين "أبي قردان" وبين الإنسان حتى تعدى أثره إليه .

٨- ولم كان اختلاف العناصر الداخلة في النباتات جعلها مختلفة المنافع للإنسان : فالكلور يدخل في شعر القطن ٣٧ , ٦٪ ، وفي حب الشعير ٣٠ , ٠٠٪ ، أي نحو ثلث واحد من المائة من تركيب الشعير ، وهو في حب الذرة آثار ضئيلة ، وفي حب الفول ٤ , ١٪ ، وفي البطاطس ٢ , ٢٪ ، وفي القصب المجرد من قماماته ١٠ , ٨٪ ، وفي البرسيم ٩ , ١٣٪ . فانظر كيف جعل هذه الحكمة بأن أدخل الكلور الذي هو أحد مادتين يتركب منهما الملح في البرسيم نحو ١٤٪ ، وفي القصب نحو النصف من ذلك ، وفي البطاطس نحو ربع ما في القصب ، وفي الفول نحو نصف البطاطس وهكذا . فانظر لولا جعل الكلور في هذه النباتات مثلا بهذه المقادير لم تتكون ولم تظهر فوائدها . فكما قدّر عظام اليدين بحساب لتكون المنافع المطلوبة هكذا قدّر وسوّى أجزاء

النبات لتكون النتائج المقدرة. ولو اختلف أي جزء عن مقداره لاختلّ أمر النبات ولم ينبت.[٢١]

واكتفى الشيخ الطنطاوي الجوهري في هذا البحث بالإشارة إلى بعض الخصائص محصورة في الإنسان والنبات فقط وفي نهاية من الإيجاز، وإلا فهذه وشرحها وتفسيرها بالاستيعاب والتفصيل يتضمن علم الأحياء بجوانبه وعلوم الطبيعة بفروعها وما يتصل بها من مباحث مثيرة للعجب. وفيما مضى ذكرنا أن الخلق والتسوية كما يصح إطلاقهما على جنس الحيوان والنبات بأنواعهما يصح كذلك أن يطلقا حسب المصطلحات المستحدثة على جميع الموجودات مادية كانت أو غيرها مثل الحرارة والنور والصوت والطاقة الكهربائية والقوة المغناطيسية، حتى إن عموم هذه الألفاظ يشمل الذرة والطاقة الذرية وما في معناهما. قال تعالى:

﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر.﴾ القمر: ٤٩

وقال تعالى: ﴿وكل شيء عنده بمقدار.﴾ الرعد: ٨

لما أن الموضوع الذي اخترته لا يتعلق إلا بعلم الأحياء، فإني أخصه وما يمتّ إليه بصلة بالذكر بدون أن أتعرض لما سواه. وكما اتضح في سالف المقتبسات من كتب التفسير المختلفة أن ثروتنا الثريّة في بطون كتب التفسير لا تخلو من نكات مفيدة من حيث المبادئ والأصول والحقائق الثابتة التي إن أردنا جعلناها أساسا لتقديم المزيد من الشرح والتفصيل في ضوء العلوم

---

(٢١) - الملخص من الجواهر في تفسير القرآن الكريم، ٢٥/ ١١٢ - ١١٣، مصر.

الحديثة بعد الاستفادة منها، وبذلك نحصّن أنفسنا من تهمة الانحراف والتحريف والابتعاد عن منهج السلف الصالح والدرب الذي سار عليه علماؤنا.[٢٢]

فقد ذكر صاحب "التفسير الكبير"[٢٣] في هذا الصدد ثلاثة أقوال، فقال:

" قوله خلق فسوى يحتمل أن يريد به الناس خاصة، ويحتمل أن يريد الحيوان، ويحتمل أن يريد كل شيء خلقه. فمن حمله على الإنسان ذكر للتسوية وجوها؛ أحدها: أنه جعل قامته مستوية معتدلة وخلقته حسنة على ما قال ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾، وأما من حمله على جميع الحيوانات قال: المراد أنه أعطى كل حيوان ما يحتاج إليه من أعضاء وآلات وحواس. وأما من حمله على جميع المخلوقات قال: المراد من

---

(٢٢) - لو أجرينا الفحص الدقيق لثروتنا التفسيرية وجدنا في أقوال أسلافنا ما يؤيد مطالبنا ونلنا بغيتنا ونكات هامة مفيدة أخرى، ولم تبق لنا الحاجة إلى الاختلاف معهم. ففي العصور الغابرة لم تطور العلوم ولم يكن تحقيقها وتدوينها في شكل نراه اليوم، ولذلك ما خاض المفسرون بحوثا مسهبة في ذلك. وإلا ما كان الإمام الرازي ليترك ذلك إلا وقد ضمن تفسيره جميع هذه المباحث والعلوم.

(٢٣) - والمراد بالصاحب هنا مكمل التفسير الكبير، ولم يعرف اسمه. وعلى ما حققه العلامة شبلي النعماني أن الإمام الرازي كتب إلى سورة الفتح وبقي التفسير ناقصا إلى أن جاء من أكمله بتفسير بقية السور في أسلوب الإمام الرازي وطريقته، دون أن يظهر اسمه. يرجع للتفصيل "مقالات شبلي" ٤/ ٤٣ - ٤٤.

التسوية هو أنه تعالى قادر على كل الممكنات، عالم بجميع المعلومات، خلق ما أراد على وفق ما أراد موصوفا بوصف الإحكام والإتقان مبرأ عن الفسخ والاضطراب" .(٢٤)

فعلى مدلول القول الثاني ينحصر "التسوية" في علم الأحياء طبقا لعلوم الطبيعة الحديثة. وبمدلول القول الأول يكون ذلك فرعا من علم الأحياء. وعلى القول الثالث يكون نطاقها محيطا شاملا لعلوم الطبيعة كلها.(٢٥)

قال العلامة شهاب الدين الآلوسي: *"ولعل ما في سائر الأقوال من باب التمثيل لا التخصيص"* .(٢٦)

وعلى كل فان الحاجة أكيدة إلى إفاضة ما ذكره المفسرون إجمالا في ضوء حقائق العلوم الحديثة والدراسات الجديدة إفاضة لا تترك غموضا ولا إبهاما حتى تتضح الدلائل وتسطع البراهين التي أوردها القرآن، ويبدو للعيون جليا ما يتضمنه القرآن من المعجزات العلمية.

وبحثنا لا يتعرض في هذه المناسبة لتطور النظريات العلمية، لأن المقصود هنا تقديم الرموز والإشارات القرآنية في صورة العناوين، وبالتالي عرض العلوم الحديثة والمعارف والمفاهيم الجديدة في شرح تلك الرموز

---

(٢٤) - التفسير الكبير، ٨/ ٣٧٩ - ٣٨٠.

(٢٥) - على سبيل المثال علم الفيزياء والكيمياء وعلم الأحياء والأرض والفلك، ويندرج تحت هذه العلوم كل شيء يوجد فيما بين السماء والأرض من الذرة إلى الأسر الشمسية وجميع ظواهر الكون وخصائصها الطبيعية.

(٢٦) - روح المعاني، ٣٠/ ١٠٤.

والإشارات وتوضيحها. فإن تطور النظريات والآراء لهذه العلوم لا يؤثر مطلقا على حقائق القرآن. قال تعالى:

﴿الر، كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير.﴾

هود: ١

علم الأحياء ومباحثه

كما أسلفنا في الفصل الماضي أن علم الأحياء (Biology) فرع من العلـم الذي يبحث عن بناء وتركيب الحيوان والنبات وأحوالهما الطبيعية.

و"البيولوجيا" كلمـة مركبـة مـن "BIOS" (الحيـاة) و "LOGOS" (العلـم)، فيكون معنى "BIOLOGY" (علم الحياة) (THE SCIENCE OF LIFE).[(٢٧)]

ولعلم الأحياء فرعان كبيران:

١- علم النبات. BOTANY.

٢- علم الحيوان. ZOOLOGY.

ثـم يـدرس كـل واحـد منهمـا بعـدة جوانبـه دراسـة مسـتوعبة منهجيـة وموضوعية، فتفرعت من كل منهما فروع عديدة وأصبحت علوما مسـتقلة بذاتها لسعة مباحثها. نذكر هنا بعضا منها على سبيل المثال:

١- علم التشكل أو المورفولوجيا MORPHOLOGY

٢- علم الأنسجة (العضوية) HISTOLOGY

---

(٢٧) - ليرجع إلى كتاب: M. E. Ayyar, *Outlines of Zoology*, Madras, 1976

٣-	علم التشريح	ANATOMY
٤-	علم وظائف الأعضاء	PHYSIOLOGY
٥-	علم التبيؤ (أو البيئة)	ECOLOGY
٦-	علم تصنيف الأحياء	TAXONOMY
٧-	علم الوراثة	GENETICS
٨-	علم الإحاثة (أو الأحافير)	PALAEONTOLOGY
٩-	علم الاقتصاد النباتي	ECONOMIC BOTANY
١٠-	علم الكيمياء الحيوية	BIO-CHEMISTRY
١١-	علم الأحياء الفيزيائي	PHYSICAL BIOLOGY
١٢-	علم الأحياء الشعاعي	RADIO BIOLOGY
١٣-	علم الأحياء المجهري	MICRO BIOLOGY
١٤-	علم الخلايا	CYTOLOGY
١٥-	علم الأحياء الجزيئي	MOLECULAR BIOLOGY

في جميع الأحياء من بين حيوان ونبات توجد ميزات مشتركة نورد بعضا منها في الآتي:

١- جميع الحيوانات والنبات من حيث بنيتها عبارة عن مجموعة من حجرات صغيرة جدا، شبه خلايا النحل، وتسمى في المصطلح بالخلايا (CELLS)، وتكون مشحونة بمادة لازقة متحركة تسمى في الاصطلاح "المادة الحية الأساسية" (PROTOPLASM) يتوقف بقاء الحياة على وجود هذه المادة

وحركتها، فما دامت هذه المادة تتحرك وتفعل في الجسم تبقى الحياة، وإذا ما هدأت هدأ الجسم ويسقط ميتا بلا روح. وعلى ذلك فالوشيجة بين هذه المادة الحية الأساسية والروح قوية ومتينة. وليس لإدراك حقيقة الروح على وجه البصيرة بد من دراسة ومعرفة علم الخلايا (CYTOLOGY).

٢- يبدأ كل من الحيوان والنبات حياته من خلية واحدة وهي بدورها تزداد وتنمو تدريجيا حتى تبلغ أعدادها مئات الملايين والبلايين. وتحتوي أعضاء أي نوع من الأحياء على هذه الخلايا التي تختلف أشكالها وهيئاتها باختلاف أنواع تلك الأحياء.

٣- لكل نوع من أنواع الحيوان والنبات طريقته الخاصة في التوالد والتناسل والنشوء، ومراحل من الشيخوخة والكبر والموت، وأطوار خاصة يمر بها ويعيش حياته الطبيعية وفقا لها.

٤- كما يتنفس الحيوان يتنفس النبات مثل ذلك، وهذا مما يتعلق بالجهاز التنفسي (RESPIRATION).

٥- يستمر نشوء أجسام الحيوان والنبات كليهما وترعرعهما تحت عملية كيماوية متلاحقة في الخلايا. وبهذه العملية تتنصف كل خلية في قسمين بالاستمرار، وتكتمل بعد ذلك خلية بذاتها مستقلة. وعلى هذا الأسلوب يستمر نمو الأجسام الحيوية شيئا فشيئا، وهذا العمل المستمر يسمى بالتحول الكيمي (METABOLISM).

٦- يستوي النبات والحيوان في صفة الحساسية ويشعر كل منهما بالراحة والألم، إلا أن الجهاز العصبي (NERVOUS SYSTEM) متطور جدا

في دنيا الحيوان، في حين أنه في أدنى درجة ومتخلف في دنيا النبات. (٢٨)

لو استعرضنا كلا منهما بنظرة شاملة من جميع مناحيها لوجدنا أمورا مشتركة بينهما هي بمثابة براهين على وحدة الخلق والربوبية وإن كانت بينهما من خلافات تدل على أوجه التمييز والتفريق بينهما. وأعظم فرق بينهما أن الحيوان حرّ في تصرفاته ويستقل بتحركاته، في حين النبات يؤدي جميع واجباته ومسئولياته على أحسن طريق وهو راسخ في الأرض جامد في مكانه، وهادئ ساكت لا ينطق ولا يبرح.

وليس من قصدنا في هذا الوقت الاستيعاب لكل جزئية، ولذلك اكتفينا في هذا البحث بذكر بعض الخصائص منها فقط. وعلى كل فان علم الأحياء وبالأخص فرعه الحيواني يقوم بدراسة منتظمة متأنية لأجهزة التنفس والعصب والمعدة والإفراز ودوران الدم وآلات البول والبراز والعضلات والتوليد والتناسل وما إلى ذلك من الأجهزة والنظم. وهذه المباحث تندرج ضمن العلوم الطبية (MEDICAL SCIENCES) أيضا، كما تندرج تحت الفروع المتعددة التي مضت ضمن علم الأحياء. وقد صدرت في هذه الموضوعات آلاف بل عشرات الألوف من الكتب في شتى اللغات. وهذه العلوم والمباحث كلها شرح وتفصيل "لنظام التسوية" الذي بينه القرآن الكريم. وكل ما يأتي الإنسان في ذلك من تحقيق وتدقيق وما يقدمه من بحوث وكشوف ويدوّنه من العلوم والمعارف في المستقبل إنما هو تفسير للتسوية والربوبية فقط.

---

(٢٨) – معظم هذه المباحث مأخوذة من كتاب: A. C. Dutta, *A Class Book of Botany*, Oxford University Press, 1978.

ومما يدل على شمولية هذه العلوم واتساع نطاق هذه المباحث أن الإنسان قد نجح في اكتشاف مئات آلاف من الحيوانات والنبات اكتشافا علميا وتفصيليا بفضل دراساته وأبحاثه المتابعة التي أجراها منذ قرون، وضبط خصائصها النوعية وقواعدها الطبيعية بغاية من الدقة والعمق. فمثلا، قد سجل الأصناف التالية من عالم النبات فقط:[٢٩]

١- عشرين ألف صنف من الطحالب (ALGAE).

٢- تسعين ألف صنف من الفطر (FUNGI).

٣- ألفي صنف من بكتيريا، أي الجراثيم (BACTERIA).

٤- خمسة عشر ألف صنف من الأشنة (LICHENS).

٥- أربعة وعشرين ألف صنف من طحالب غير مزهرة (BRYOPHYTA).

٦- تسعة آلاف صنف من السرخسيات وهي طائفة من اللازهريات الوعائية (PTERIDOPHYTA).

٧- سبعة آلاف صنف من النبات العاري البذور (GYMNOSPERMS).

٨- مأتي ألف صنف من نبتة كاسية البذور (ANGIOSPERM).[٣٠]

---

(٢٩) - تنقسم النباتات بناء على عدة خصائصها وميزاتها المشتركة إلى زمر (GROUPS) وهذه الأصناف التي سردناها من أمثال تلك الزمر.

(٣٠) - يرجع إلى كتاب: A. C. Dutta, *Botany for Degree Students*, Oxford University Press. 1979

وهذه الأنواع من الأحياء هي ما توصل إليه الإنسان ويعرفه ويطلق عليها أسماء متجددة يبتكرها حسب لغته، وسواها من أنواع النبات اللامحدودة في هذا الكون لم يهتد إليها بعد، ولم يعرفها إطلاقا، ويستحيل معرفتها وإدراكها من عدة وجوه. وعلى ذلك فنرى أن العثور على "نظام التسوية" للربوبية واستقصاءه كاملا ليس صعبا فحسب ولكنه مستحيل، وغير متأت للإنسان أبدا في أية حال أن يستوعب هذا النظام علما ومعرفة. بل ويبقى علمه إلى يوم القيامة ناقصا محدودا دون أن يبلغ حد الكمال. ولو قطعت علوم الأحياء من أشواط بعيدة في مجال التقدم والرقي. بل ومن الممكن حقا أن يكون ذلك تفسيرا جديدا للآية الكريمة ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلا.﴾

والحاصل أن لفظة "التسوية" في الآية الكريمة من سورة الأعلى لما وردت عامة مطلقة يصح إطلاقها على دنيا الأفلاك والجمادات كما يصح إطلاقها على دنيا الحيوان والنبات. لذلك خصصت هذه اللفظة بالذكر عند البحث عن خلق السماوات وطبقاتها وخلق بني آدم في المناسبات الأخرى العديدة من القرآن الكريم. فقال جل وعلا:

﴿أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها، رفع سمكها فسواها.﴾
النازعات: ٢٧-٢٨

وقال: ﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك، في أي صورة ما شاء ركبك.﴾ الانفطار: ٦-٨

فاستعمال لفظة "التسوية" لطبقة السماوات وبني نوع البشر بصورة

خاصة لم يكن إلا لأهميتها البالغة جدا. ثم إن ذكرهما جاء كعَلَمين وقعا بعيدين أقصى البعد، وعلى مسافة أطول تقدر بملايين وبلايين السنين من السنة الشعاعية -وبينهما طبقات كثيرة لا يأتي عليها العد من طبقة صغيرة وكبيرة لا تسمح هذه العجالة بالخوض فيها تفصيليا- فقد تضمن ذكر هاتين الطبقتين العليا والسفلي الإشارة إلى أن الطبقات الواقعة بينهما يعمل فيها أيضا نظام التسوية، كما نجد بعض التفاصيل لنظام التسوية فيما يتعلق بباطن الإنسان إضافة إلى ما سبق في الآيات التالية. قال سبحانه وتعالى:

﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما، ثم أنشأناه خلقا آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين.﴾ المؤمنون: ١٣ - ١٤

وقال تعالى: ﴿نحن خلقناهم وشددنا أسرهم.﴾ الدهر: ٢٨

أي أحكمنا أعضاء الجسم وعظامه وقوّيناها ليحسن القيام والخضوع والجلوس والتردد والتجول والجري بدون مشقة. وحقيق أن يسمى هذا النظام للتسوية بجملته بـ"جهاز التسوية الكوني" من هذه الوجهة.

نظام التقدير

وجاء بعد ذلك قوله تعالى: ﴿والذي قدر فهدى﴾ أي الذي قدّر لجميع الخلق نظاما طبيعيا ثم هداه ليسير وفق هذا النظام. وهذه هي الأخرى من القواعد الكلية التي تنطبق على جميع الخلق وكل مظاهر الطبيعة كما تفسره الآيات الأخرى في القرآن الحكيم. ففي مستهل سورة الفرقان ورد قوله سبحانه:

﴿وخلق كل شيء فقدره تقديرا.﴾ الفرقان: ٢

ولفظ "التقدير" يرد لمعان:

١- لبيان مقادير الأشياء.

٢- إعطاء القوة والقدرة على شيء.

٣- التقويم أو التخطيط.

قال الإمام الراغب الأصفهاني:

" والقدر والتقدير تبيين كمية الشيء، يقال: قدرته وقدّرته، وقدره بالتشديد: أعطاه القدرة، يقال قدّرني الله على كذا وقوّاني عليه. فتقدير الله الأشياء على وجهين؛ أحدهما بإعطاء القدرة، والثاني بأن يجعلها على مقدار مخصوص و وجه

مخصوص حسبما اقتضت الحكمة. وذلك أن فعل الله تعالى ضربان: ضرب أوجده بالفعل، ومعنى إيجاده بالفعل أن أبدعه كاملا دفعة لا تعتريه الزيادة والنقصان إلى أن يشاء أن يفنيه أو يبدله كالسماوات وما فيها. ومنها ما جعل أصوله موجودة بالفعل وأجزاءه بالقوة، وقدره على وجه لا يتأتى منه غير ما قدره فيه، كتقديره في النواة أن ينبت منها النخل دون التفاح والزيتون، وتقدير مني الإنسان أن يكون منه الإنسان دون سائر الحيوانات. [٣١]

فعلى هذا التفسير يكون المراد من الآية القرآنية في سورة الفرقان ﴿فقدره تقديرا﴾ أن الله سبحانه قدر لكل نوع من الخلق قانونا طبيعيا خاصا، ثم أعطاه القدرة والملكة التامتين على العمل والسعي حسب هذا القانون الطبيعي. أو بمعنى آخر قرر له هذا القانون الفطري نظرا إلى طاقة الخلق وقدرته، وما يصلح له من الوظائف، كما قال جل وعلا:

﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها.﴾ البقرة: ٢٨٦

وذلك من سنة الله أنه منح كل خلقه في الدنيا قانونا خاصا أو ناموسا طبيعيا لحياته يوافق طبيعته المتميزة وقواه واستعداداته الفطرية، وكذلك يمنح كل مخلوق بيئة ملائمة (Environment) ليعمل وفق هذا القانون. وهذا جدير أن يطلق عليه "نظام التقدير العالمي". وعلى ذلك فان نظم التقدير تتعدد بتعدد أنواع الأحياء. ولا مجال لاستعراض قوانين الربوبية ونظم

---

(٣١) - المفردات في غريب القرآن، ص ٣٩٥.

التقدير إلا بعد التتبع والتمحيص لجميع علوم الأحياء التي أنجزها العصر الحديث.

ومن نافلة القول أن نذكر في هذه المناسبة أن النبوة والشريعة وما إليهما إنما هما جزءان من هذا النظام الذي يرتبط بالتقدير، أي مفهوم التقدير ينطبق عليهما كمفهوم جزئي بالنسبة لمفهومه الواسع الشامل.

قال صاحب روح المعاني: "﴿والذي قدر﴾ *أي جعل الأشياء على مقادير مخصوصة في أجناسها وأنواعها وأفرادها وصفاتها وأفعالها وآجالها*". [٣٢]

وقال صاحب التفسير الكبير:

"*إن قوله ﴿قدر﴾ يتناول المخلوقات في ذواتها وصفاتها كل واحد على حسبه. فقدّر السماوات والكواكب والعناصر والمعادن والنبات والحيوان والإنسان بمقدار مخصوص من الجثة والعظم، وقدّر لكل واحد منها من البقاء مدة معلومة، ومن الصفات الألوان والطعوم والروائح والأوضاع والحسن والقبح والسعادة والشقاوة والهداية والضلالة مقدارا معلوما، على ما قال: ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه، وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾ الحجر: ٢١. وتفصيل هذه الجملة مما لا يفي بشرحه المجلدات، بل العالم كله من أعلى عليين إلى أسفل السافلين*

---

(٣٢) - روح المعاني، ٣٠/ ١٠٤.

تفسير هذه الآية وتفصيل هذه الجملة" .[٣٣]

ولنلتفت إلى بعض الآيات الأخرى التي تتحدث عن تقدير العزيز العليم الذي يسع الكون ويشمل كل شيء. فيتحدث القرآن عن الشمس والقمر ويقول:

﴿وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا، ذلك تقدير العزيز العليم.﴾ الأنعام: ٩٦

وقال: ﴿والقمر قدرناه منازل.﴾ يس: ٣٩

وقال في الليل والنهار: ﴿والله يقدر الليل والنهار.﴾ المزمل: ٢٠

وقال وهو يتحدث عن خلق المعايش ومرافق الحياة وتوفير الأرزاق المتنوعة للخلق: ﴿وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام.﴾
حم السجدة: ١٠

وقال في الإنسان: ﴿من نطفة خلقه، فقدره.﴾ عبس: ١٩

وذكر كقاعدة كلية عامة: ﴿قد جعل الله لكل شيء قدرا.﴾
الطلاق: ٣

وعلى كل، فان جميع مظاهر الكون من الثرى إلى الثريا ومن العرش إلى الفرش موثق رباطها بالقوانين والنظم المحكمة القوية العالمية الشاملة، ألا وهي "التقدير". وهذه هي تلك القوانين التي يبحث عنها الإنسان المعاصر

(٣٣) - التفسير الكبير، ٨/ ٣٨٠.

بالعلوم ، ويصطلح عليها باسم "قوانين الطبيعة" (LAWS OF NATURE) ، إلا أن الحقائق لا تتغير أبدا بتغير الأسماء والمصطلحات .

نظام الهداية

كالكلمات السالفة ومعانيها ومفاهيمها تماما تحمل كلمة الهداية مفهوما أوسع ومعنى أجمع ، أي أن الله سبحانه لما أن له الربوبية الكاملة أوجب على نفسه واختص بهداية كل خلق وكل نوع منه حسب قانونه الطبيعي الخاص ، وأحال كل نوع من أنواع الخلق إلى هذا القانون الطبيعي الخاص بوجه أكمل ، لا يستطيع الانحراف عن جبلته وقانونه الطبيعي. وجاء شرح هذا القانون وتفسيره في مكان آخر من القرآن بهذا الأسلوب :

﴿قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى . ﴾ طه : ٥٠

قال الشيخ الشاه ولي الله الدهلوي في حواشيه على القرآن الكريم بالفارسية ما معناه : "*أي قدر جميع خلقه ثم تصرف فيه على هذا التقدير ليصلح للعمل بكل وجه وأحسن طريق ، فعبر عن هذا التصرف بالهداية*" . [٣٤]

وقال العلامة الآلوسي رحمه الله تعالى : "*فوجه كل واحد منها إلى ما يصدر عنه وينبغي له طبعا أو اختيارا ، ويسره لما خلق له بخلق الميول*

---

(٣٤) - فتح الرحمن ، بومبائي ، ١٣٠٤ .

والإلهامات ونصب الدلائل وإنـزال الآيـات . فلـو تتبعـت أحـوال النباتـات والحيوانـات لرأيـت في كـل منهـا مـا تحـار فيـه العقــول وتضيــق عنــه دفــاتر النقول" . (٣٥)

وأورد العلامة ابن كثير رحمه الله حديثا -رواه مسـلم في صحيحـه- في تفسير هـذا اللفـظ ، مسـتدلا علـى شـمولية مفهـوم الهدايـة الواسـع لجميـع الخلائق :

عن عبد الله بن عمر -رضي الله عنـه- أن رسـول الله صلـى الله عليه وسلم قال : "إن الله قدر مقـادير الخلائـق قبـل أن يخلـق السـماوات والأرض بخمسـين ألـف سنة ، وكـان عرشـه علـى الماء . (٣٦)

وقال العلامة المفتي محمد شفيع رحمه الله :

"إن الله سـبحانه لـم يـترك الأشـياء همـلا بعـد مـا خلقهـا ، ولكـن جعلها لوظائف معينـة ، وقـدر لهـا الأعمـال ، وأعطـى كـلا منهـا وسائل مناسبة ، وشغله بها . والحق أن هذه الهداية محيطة بكـل كائن وشاملة لكل خلـق ، تستوي في ذلـك السـماوات والأرض وما خلق فيهما ، لأن الله سبحانه رزقها العقل والشعور والإدراك من نوع خاص ، وإن كان ما أعطيت نصيبا أدنى وحظا أقل" . (٣٧)

---

(٣٥) - روح المعاني ، ٣٠/ ١٠٤ .

(٣٦) - تفسير ابن كثير ، ٤/ ٥٠٠ .

(٣٧) - معارف القرآن ، ٨/ ٧٢٣ - ٧٢٤ .

وقد توجد في عالم الحيوان أنواع كثيرة تبعث على العجب والاستغراب، وتعد بغرائب صفاتها ونوادر خصائصها من عجائب العالم، ولا يمكن تأويل حركاتها وأفعالها المحيرة إلا بهداية الله وصفته الربوبية، فقد صنف العالم الأمريكي الشهير كريسي موريسن (CRESSY MORRISON) كتابا في رد المادية حلاّه بدلائل علمية قاطعة من وجوه عديدة، وأسماه MAN DOES NOT STAND ALONE. قام بنقله إلى الأردية الأستاذ صلاح الدين أحمد وأسماه في الأردية بالذي معناه في العربية (الله معنا) نذكر من بابه الثامن (الطبائع الحيوانية) بعض الأمثلة الطريفة المثيرة لكوامن التأمل والتفكير في قدرة الله وهدايته:

"إن الأوزة تطير في الشتاء وترحل من المناطق الثلجية الشمالية عبر قمم الجبال إلى ساحات بلادنا، وتعيش حول البحيرات والترع أيام الشتاء كلها، ثم عند ما تحل الربيع تتجه إلى أوطانها قافلة بدون أن تنحرف في طريق عودتها عن الخط الذي أتت فيه، ونفس هذه الحالة تصدق على الحمام الزاجل. إن شئت أن تجرب ذلك فاذهب به بعيدا بالقطار أو السيارة محبوسا في القفص إلى مسافة مئات الأميال. عندما تطلق سراحه يحلّق في الفضاء ويحوم حومات كأنه يقدر الطريق ويستبين مكانه، ثم يتوجه كالسهم إلى بيته الأصلي، ويصل إليه توّا بدون أن يلوي على شيء، وهذه جبلته وطبيعته قد طبع عليها. ويشترك معه

في هذه الصفة النحل من كل وجه، فإنها تبعد في البحث عن عصير الأزهار وتعود إلى مقرها من غير أن تضل السبيل". [٣٨]

"السامون من الأسماك يعيش في البحر سنوات، لكن عند ما يحين وقت رحيلها إلى وطنها الأصلي يتجه إلى مصب بعض الأنهار ويستمر في زحفه إلى فوق مقاوماً للتيارات الجارفة، وبعد قطعه مئات من الأميال ينعرج إلى النهر الذي هو مولده، وفي الجانب الذي ينتمي إليه. فالسامون الذي نشأ في الناحية اليمنى من النهر لا يذهب إلى اليسرى، وكذلك العكس، وإن كانت هذه الناحية مليئة بالأخطار وبسطت فيها الشبكات وقضبان الصيد والشصوص، وكانت الناحية الموازية في مأمن من كل ذلك لبعض القوانين البلدية أو الدولية. فما هو الشيء يأخذ به إلى نفس المقر بصفة معينة؟ ومما شوهد مرارا أن هذا السمك إذا مال إلى نهر آخر خطأ في سفره على اتجاه مقلوب، يتدارك بالعودة فور ما يشعر بالخطأ، ويدخل في نهره عند ما يصل إلى منعطفه فيدرك منزله المنشود ويلاقي قدره المعلوم.

أما الأيل من الأسماك فأمرها أغرب من ذلك وأشد حيرة وتعقدا، فإنها تترعرع و تشب في الأنهار والبحيرات التي على شواطئها، ثم تتجه من كل حدب وصوب في الدنيا إلى جهة واحدة ومنزل واحد، وهو برمودا الجنوبية. ولا شك أن جزائر

---

(٣٨) – الله معنا (باللغة الأردية)، ص ٧٥، ١٩٥٦.

برمودا تبعد من أوربا بألوف الأميال ، ولكنها تقطع هذه المساحة الطويلة وتنتهي من البلدان الشمالية إلى البحار الجنوبية ، وتتقعر في أعماقها فتبيض هناك أولا ثم تموت ، وصغارها التي لا تجد أمامها سوى الظلمات الموحشة للبحر الشاسع اللامحدود تأخذ طريقها إلى السواحل التي شد آباؤهم الرحيل عنها ، وتصل إلى نفس الأنهار والبحيرات أو الترع التي كان فيها أسلافها ، وتعمر مساكنها وتسكن أوطانها . وفي هذا السفر كم من سيول تمر بها وعواصف تصطدم معها وورطات تتشابك فيها ، حتى تصادف منازلها التي لم تقع عليها قط عيونها الظاهرة ، وإنما تهديها إليها إشارة إلهية خفية من ستار الغيب . ومع هذه الصعوبات والمشاكل في السفر لم تشاهد أيل أوربية في البحار الأمريكية ولا أيل أمريكية في المياه الأوربية إلا أنهما يجتمعان حتما في برمودا ، ولكن صغارهما في العودة تصيب أهدافها إصابة السهم مرماه" .[٣٩]

"الأفراخ المسروقة من أعشاشها عند ما تكبر تصنع أعشاشها حالة الحبس على نفس الطراز الذي يختص بآبائها" .[٤٠]

"توجد في المياه العذبة حيوانات كثيرة الأرجل إن قطعت أجسامها قطعتين تعود كل قطعة منهما لتكون جسما مستقلا .

---

(٣٩) – نفس المرجع ، ص ٨٥ – ٨٧ .

(٤٠) – نفس المرجع ، ص ٩٠ ،

وكذلك يوجد قرب الأوحال والمستنقعات نوع من الخراطين إن قطعت رأسه يخلق من جديد". [٤١]

"كل خلية أولية تخبئ في نفسها بجميع جزئياتها شخصا كاملا. فلم يبق للشك مجال في الاعتراف بأن ذاتية كل واحد منا توجد غير مرئية في كل خلية وقطعة من الجسم، وكيف أن الخلية الواحدة تتدرج بصورة محيرة إلى حيوان كامل، هذا مما يحل مكانا ممتازا من سنن الطبيعة". [٤٢]

ويقول هذا المصنف نفسه في مقال آخر:

"إن الزنبورة تعجز الفراشة وتتركها كليلة وتحفر في الأرض حفيرة، وكل ذلك ببالغ من الدقة والحكمة، فتنفذ خرطومها من الفراشة في عضو خاص ومكان مناسب حتى لا تموت، ولكن تحيى مغمى عليها وتبقى لحما طريا مصونا، وهذا توفيرا لقوت صغارها التي ستخرج من البيضة التي تبيضها بكل نسق وترتيب، حتى لا تتعب أولادها في البحث عن الغذاء بعد انفقاس البيضة، لأن لحم الحشرة الميتة يكون سما لها. ثم تطير الأم وتموت في الخارج بدون أن تعود لمرة ثانية للنظر في أحوال

---

(٤١) - نفس المرجع، ص ٩١.

(٤٢) - نفس المرجع، ص ٩٢.

أولادها . وهذه التدابير لا تحصل لأحد عن طريق التعلم والتعليم، ولكنها مودعة في الطبائع وعجنت بها الخمائر" .(٤٣)

وكذلك الأحوال العجيبة للحياة الاجتماعية الدقيقة الانتظام والتناسق التي تعيشها الأرضة والنمل والنحل تحمل كثيرا من دروس العبرة والاتعاظ ، وخاصة بيوت النحل في خلاياها التي تبنيها في شكل هندسي بدون أن تستخدم آلة صناعة وبناء ، والتي تكون آية في الهندسة والتشييد لا تمكن أبدا إلا بالإلهام والهداية من الله تعالى . والعنكبوت كذلك تنسج بيتها في أشكال هندسية من غير استناد إلى فرجار أو شيء آخر ، ولا يخشى أن يتطرق الخطأ إلى تشكيله ونسجه في هيئة هندسية .

والدكتور ألكسس كيرل (ALEXIS CARREL) هو الآخر من العلماء الأمريكيين المعروفين يكتب في كتابه "الإنسان ذلك المجهول" (MAN THE UNKNOWN) وهو يبين تشابه عمل الخلايا مع عمل النحل الغريب المحير ، ويعلق على ذلك فيقول :

The cells seem to remember their original unity, even when they have become the elements of an innumerable multitude. They know spontaneously the functions attributed to them in the organised whole.

Cells are like bees, erecting their geometrical alveoli, synthetising honey, feeding their embryos, as though each one of them understood mathematics, chemistry, and biology, and unselfishly acted for the interests of the entire community. The spontaneous tendency toward formation of the organs by their constitutive cells, like the social aptitude of the insects, is

---

(٤٣) - صحيفة "صدق جديد" الأسبوعية (الأردية)، ٢٦-١-١٩٦٢م.

a primary datum of observation. It cannot be explained in the light of our present concepts. (44)

"يخيل أن الخلايا لا تنسى وحدتها الابتدائية حتى عندما هن قد أصبحن أجزاء من كتل وجماعات كثيرة ، فإنها تستشعر تلقائيا بجميع الوظائف التي وجب عليها أداءها .
مثل الخلايا كمثل النحل التي تجهز خليتها طبقا لمبادئ الأقليدس، فيجتمع العسل في هذه الخلية ويتغذى به صغار النحل. يرى كأن جميع أفراد النحل تعرف علم الحساب والكيمياء والحياة بكل جدارة وبراعة، ويخلص كل منها في عملها الجماعي لصالح الآخر. واشتغال الخلايا ببناء الأطراف وتكوين الأعضاء بطواعية النفس -مثل الكفاءة الإجتماعية للحشرات- من الأصول البديهية فيما يشاهد، ولا نجد لذلك تأويلا في ضوء نظريتنا الحديثة وتصوراتنا الحاضرة" .

ويصل كريسي موريسن (CRESSY MORRISON) إلى نتيجة صحيحة تماما في كتابه وهو يعدد الأمثلة على هذه الحياة المنتظمة والمتمدنة للغاية، التي تعيشها النحل والنمل. ثم يعلق على كل من ذلك فيقول:

"هنا يطرح سؤال نفسه وهو أن الذرات الصغيرة من المادة وأجزاءها الدقيقة التي يتكون منها جسم صغير للنمل كيف تقوم بمثل هذه الأعمال التي تبلغ أقصى حد من التعقد والصعوبة،

---

(٤٤)- Man the Unknown, Dr. Alexis Carrel, Wilco Publishing House, 1959, P. 107-108.

وليس عن ذلك جواب إلا أن هناك عقلا عبقريا وفطنة بالغة وراء هذا النظام تعمل عملها بكل دقة وإبداع"[(٤٥)].

وعلى ذلك فلو دققنا النظر في الكائن الحي لعثرنا على أن كل نوع من أنواع الأحياء على وجه الأرض ينفرد بطبيعة خاصة وجبلة منفردة تشرف عليها في القيام بأعمالها، ذات من الغيب وتنظم أحوالها وكوائفها الفطرية وتهدي كلا من الأحياء وترشده إلى قوانينه الطبيعية الخاصة. وعلى هذه القوانين والأصول المحكمة يحصل كل خلق على رزقه كما يليق بحاله بوساطة بعضه للبعض وتضافر التعاون والجهد المشترك فيما بين الخلائق، ولو استعرضنا علم الأحياء من هذه الوجهة لبرزت لنا مناظر مدهشة لربوبية الرب وامتنانه على خلقه.

قال تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها.﴾ هود: ٦

ولو لم يكن هذا النظام القيم الشامل والمتواصل الحلقات لربوبيته وإحسانه إلى الخلق (التقدير والهداية) لعمت الفوضى والاضطراب ولتعرض العالم للخراب، واندثر في ثوان ولحظات. ولكن عدم الاضطراب، والترابط والانتظام الذي يسود هذا الكون المليء بالألوان والأنواع أدل دليل على أن جميع مظاهر الحياة -التي تحمل مئات الألوف من الخصائص المختلفة المتباينة- تتابع سيرها وعملها تحت إشراف كامل ومتواصل من العزيز الخبير:

---

(٤٥) - الله معنا: كريس موريسن، (الترجمة الأردية) ص ١٠٠.

﴿ذلك تقدير العزيز العليم.﴾ حم السجدة: ١٢

﴿الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل.﴾ الزمر: ٦٢

﴿ألا له الخلق والأمر.﴾ الأعراف: ٥٤

وكلما نجري الدراسة الشاملة في خلق الله ونسرح فيه الطرف تفصيليا وندقق النظر تطالعنا الدلائل والبراهين ودروس وعبر. وفي ذلك قوله تعالى:

﴿وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون.﴾ الجاثية: ٤

ومما تخلص من البحث السابق أن هذه الكلمات الأربع في معانيها بمثابة أربعة قوانين أو نظم مستقلة تحيط بالخلق كله.

رد المادية

كما سبق أن ألمحنا إلى أن الحيوان والنبات كلا منهما على السواء يبدأ وجوده من مادة أولية، وبعد ذلك تتضاعف الخلايا (CELLS) تدريجيا حتى إن الفرد الواحد من الإنسان يحتوي على بلايين من الخلايا. هناك ينبعث سؤال، وهو أنه كيف لبس رداء الحياة شيء فاقد الحياة، أو ظهرت خلية من مادة عديمة الحركة والحياة، أو كيف تعود الحياة إلى قطرة من مني و إلى بذرة يابسة أو نواة مرمية وميتة، بغاية من الانضباط والانسجام؟ ومن وجهة النظر المنطقية العقلية والعلمية يستحيل بداهةً ظهور الحركة بدون محرك. ألا إن هذا المحرك أو الفاعل في هذه الأشياء هو الله سبحانه وتعالى.

فلو تعقب هذا الكلام بأن المني تكون فيه أجسام جدّ مصغرة في كمية هائلة عندما تلتقي ببيضة المرأة تسبب لتكون الجنين، وهي حيّات منوية

(Spermatozoa)، فيأتي السؤال على ذلك: من أين وجدت هذه الأجسام المصغرة في المني؟ ومن خالقها؟ وكيف تتحد النتائج في كل مرة؟ ومن ذا الذي يصوغ هذه الأجسام التي تماثل شكل الحية في قالب الإنسان دائما؟ وغير واحد من مثل هذه الأسئلة لا تجد النظرية المادية والفكر الإلحادي ردا على ذلك، فالادّعاء بأن وجود الحياة بلا خالق أو صانع جاء عفوا وبدون سبب، وأن هذا النظام سائر مستمر بنفسه ادعاء باطل ما لهم به من سلطان. لذلك قال تعالى:

﴿سبح اسم ربك الأعلى، الذي خلق فسوى.﴾ الأعلى: ١-٢

وهو الخلاق ذو المحامد والمكارم، الذي يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، يقف الإنسان عاجزا منبهرا عن فهم أسراره وأفعاله.

﴿إن الله فالق الحب والنوى، يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي، ذلكم الله فأنى تؤفكون.﴾ الأنعام: ٩٥

إبطال نظرية النشوء والتطور

يتبين بعد النظر أن هذه القوانين الأساسية الأربعة لنظام الربوبية، وهي الخلق والتسوية والتقدير والهداية، ليس أنها حكاية مسلسلة متناسقة الأجزاء ومتصلة الحلقات فحسب، بل إنها تضرب على التصورات والنظريات المادية المشركة المنحرفة وتردها، ومنها نظرية التطور.[٤٦]

---

(٤٦) - تناولنا هذا البحث عن نظرية التطور بإلمام سريع عابر ليكتمل شرح الآيات الكريمات وتفسيرها، وللدراسة الشاملة على هذا الموضوع يرجع إلى كتاب مستقل بعنوان "خلق آدم ونظرية النشوء والارتقاء" للمؤلف.

فمما قيل في تعليل لبداية الحياة من المناصرين لنظرية التطور أنه لما وجد الماء والهواء على ظهر الأرض ظهر في الماء نوع ابتدائي من حيوان أحادي الخلية ظل يقطع مراحل التطور والنمو مدة طويلة ويتشكل في أشكال الأنواع المتعقدة والمتعددة الخلايا، ثم ظهرت هذه الأنواع الجديدة في قالب النبات عبر المراحل الكثيرة التعقدات للتطور والنمو، ثم تطور النبات وأنواعه حتى ظهرت في صورة الحيوان الحقير الذي ما زال يغير أشكاله وهيئاته بالاستمرار إلى أن برز في شكل متقدم ومتطور جدا يسمى بالإنسان.

وقد صدرت كتابات كثيرة حول نظرية التطور ردا ومساندة، ولكن دلائل الرد والرفض أقوى وأحكم من دلائل التأييد والمساندة. ثم إن القضية ليست من الحقائق الثابتة أو من النظريات العلمية بل إنها محاولة لتعليل وجود مظاهر الكون من وجهة النظر المادية نجمت عن الصراع التاريخي القديم بين العلم والمسيحية والذي أسفر عن عصر النهضة الأوربية (RENAISSANCE).

وعلى كل فان السؤال الأول الأساسي الذي لم يخطر ببال "دارون" (DARWIN) نفسه هو أنه كيف ظهرت الحياة ابتداء من الماء في حين أن التجارب العلمية المختلفة أكدت تأكيدا باتّا على أن المادة الميتة وغير المتحركة لا تستطيع أن تنتج حيا متحركا كما أثبتتها تجارب العالم الجراثيمي الكبير "باسجر" (PASTEUR).

وبناء على ذلك يرى كثير من العلماء أن ابتداء الحياة لم يوجد على الكرة الأرضية، بل الظن أنها نزلت إلى هذه الكرة من إحدى السيارات

الأخرى على عواتق الأحجار النيزكية أو الشهب (Meteorites)، ولكن السؤال الجذري قد بقي تماما لا يجد الرد، وهو: من أين وجدت الحياة في السيارات الأخرى؟ والحقيقة الكبرى التي يغمض عنها العلماء الماديون هي الاعتراف بالخلاق العليم الذي له وحده التصرف المطلق. ولكن بدون الاعتراف والإيمان بوجود هذه الذات الإلهية، ذات الجلال والجبروت لا يمكن حل هذه العقد، بل تتحول أشد غموضا وخفاء. ولذلك قال تعالى: ﴿سبح اسم ربك الأعلى، الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى.﴾

والاعتراض الثاني الجذري الذي يرد على نظرية التطور وتعليلها أن الملايين من أنواع الأحياء التي توجد بين الإنسان المتكامل والحي الأحادي الخلية، هل نشاهد اليوم في نظامها الجسدي والطبيعي تغييرات وفروقا يفترض على أساسها أن نوعا ما يخرج من بطن نوع آخر مغاير؟ وهل توجد تغييرات ولو كانت بسيطة في عاداتها وسلوكها وطبائعها؟ وهل يمكن اليوم أن يولد من بطن بعوض ذباب ومن دجاجة بطة ومن زنبور خنفساء ومن عنكبوت حريش ومن بطن نمل أرضة ومن ببغاء زرزور ومن فيل كركدن؟ بل وهل من الممكن أن يخرج من بطن إنسان نوع من الحيوان يكون أعلى منه أو أشد تعقدا؟ وهلم جرا.

الأمر الذي يدعو إلى التفكير أن المادة الحية الأولى لأي نوع من أنواع الأحياء التي تقارب الملايين من أحادي الخلية إلى الإنسان الكامل لم تتبدل ولم تنته في هذه المدة الطويلة، كما تقول وتدّعي نظرية التطور. ومما يثير الحيرة والاستعجاب أن البرزويات (PROTOZOA) بعد إيجادها من نفسها نوعا أسمى وأعلى منها وبعد مرور مئات الألوف من السنين تبقى على

حالها برزويا، والهيدرا (HYDRA) في صورة الهيدرا، والبعوضة بعوضة، والقط في شكله، والكلب على حاله، وما إلى ذلك من الأحياء الأخرى. وكان من الممكن أن يصح التعليل الذي تقدمه هذه النظرية، لو انطمس وجود النوع الأدنى بعد وجود النوع الأعلى منه. ولكن نوعا لا نرى فيه تغيرا ولا تظهر علائم التغير والتبدل في المستقبل، لا في شكله وهيئته، ولا في عاداته وخصاله، ولا في قوانينه الطبيعية أو خصائصه ومميزاته، فما أبعد الاستدلال عقليا وعلميا أن نفترض في الماضي مثل هذه الإمكانيات بدون دليل من العقل أو المشاهدة ثم تقام عليها عمارة مشيدة.

﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين.﴾ النمل: ٦٤

وعلى كل فان قوانين نظام الربوبية -الخلق والتسوية والتقدير والهداية- كما ترد هذه التصورات الباطلة والنظريات المهلهلة، تعلل هذا العالم والقوانين السائدة فيه توجيها مقنعا، وليس في شرح هذه القوانين وتفصيلها أي فراغ أو شقة تدل على الضعف والركاكة.

﴿إن ربك هو الخلاق العليم.﴾ الحجر: ٨٦

معنى "الخلاق" -كما أسلفنا- هو الخلق بعد الخلق للخلائق، ضمن معانيه الأخرى. وبذلك يمكن أن تكون هذه الملايين من أنواع الأحياء قد أتت إلى حيز الوجود مرة بعد مرة في مختلف الأوقات. وهذا المعنى أقرب إلى القياس دونما شك، سواء كانت هذه المدة قصيرة أو طويلة، لا مخلص من الاعتراف بوجود خلاق في أية حال من الأحوال. وإلا فلا تعليل مقنعا لملايين الأنواع من الأحياء وخصائصها.

ويدل السياق كذلك على أن معنى "العليم" هنا كثير العلم بخلقه، والمحيط بكل جزئياته، والخبير بقوانين هذه الملايين واللامتناهي من أنواع الأحياء الطبيعية، بكل بواطن أحوالها وظواهرها، والرازق لكل منها بما تقتضيه فطرته:

﴿إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين.﴾ الذاريات: ٥٨

أي يرزق كل خلقه بقدرته الكاملة، على طريقة منضبطة سوية، ومتينة متناسقة، لا يتطرق إليها عيب ولا نقص.

صدر حديثا من جامعة أكسفورد كتاب قيم "موسوعة المجهولات".[٤٧] نشرت فيه مقالات وبحوث -اشترك في تحقيقها ستون عالما من المتضلعين في مجالات العلم المختلفة أقر كل واحد منهم بعد استعراضه الدقيق لفنّه بأن الحقائق التي يجهلها الإنسان أو لم يتوصل إلى كنهها للآن، منها حقيقة الحياة ومصدرها بالإضافة إلى أنواعها، حتى إن بعضهم -نظرا إلى ذلك- عنون بحثه بـ"مغالطات نظرية التطور" (FALLACIES OF EVOLUTIONARY THEORY). كما يقول: إن مازق الواقع في الفكر التطوري، والذي يفضي

---

(٤٧)- Ronald Duncan, The Encyclopaedia of Ignorance, Pergamon Press, Oxford, 1978.

إلى مغالطات كثيرة، يرجع إلى تفسير الحقيقة البيولوجية في ضوء النظريـات الطبيعية المهجورة.[٤٨]

(٤٨) - نفس المرجع السابق: ص ٢٣٤.

دراسة علم الأحياء

كما سبق أن ذكرنا أن تفسير هذه الآيات الكريمات ﴿الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى﴾ يمكن أن يشمل جميع موجودات الكون بجميع فروعها وأجزائها والتي يحوي محور بحثها ودراستها جميع علوم الطبيعة. منها كضرب الأمثلة:

علم الفيزياء	PHYSICS
علم الكيمياء	CHEMISTRY
علم الأحياء	BIOLOGY
علم طبقات الأرض أو الجيولوجيا	GEOLOGY
علم الفلك	ASTRONOMY

وتبدو هذه الآيات الكريمات من الجوامع الإلهية عقليا ومنطقيا، وجميع فروع علوم الطبيعة وقضاياها ومباحثها المنوعة تكتنفها هذه الآيات أو القوانين الأربعة بصورة مذهلة تأخذ باللب، وكأنها هي أربعة قوالب ربانية تصدر منها المصنوعات الإلهية.

وإذا استعرضنا مباحث علم الأحياء بهذا الاعتبار وجدناها لا تتجاوز ما تضمنته هذه الآيات الكريمات، وكما ألمحنا إليه أن علم الأحياء يتفرع إلى

فرعين هامين: علم الحيوان وعلم النبات، ولكن الدراسة تجري على كل من الحيوان والنبات من اعتبارين بصفة مبدئية:

١- دراسة أعضائهما وأطرافهما المختلفة وبنيتهما وصنعة أجسامهما الداخلية والخارجية، ويطلق على ذلك علم تشكل الأعضاء (MORPHOLOGY).

٢- دراسة وظائف هذه الأعضاء وتأثيراتها، وتسمى الفزيولوجيا (PHYSIOLOGY).

ويمكن بالإيجاز والأسلوب السهل أن نقول: إن علم الأحياء عبارة عن دراسة لأشكال الحيوان والنبات وسجاياهما، ففي علم التشكل (MORPHOLOGY) تدرس الأشكال، وفي علم الفزيولوجيا (PHYSIOLOGY) تدرس السجايا والطبائع. ويظهر عند النظر في المباحث السابقة من هذه الوجهة أن فقرة ﴿الذي خلق فسوى﴾ تحتوي على العلم الأول، وفقرة ﴿والذي قدر فهدى﴾ تحتوي على العلم الثاني. وعلى ذلك فتبدو جميع علوم الأحياء تفصيلا وشرحا لهاتين الآيتين الباهرتين.

وقد تناولت الآيتان هذه المباحث لعلم الأحياء بشيء من الجامعية والشمول لا يوجد له نظير في الآيات الأخرى، إلا أن جزئيات هذه المبادئ قد وردت في بعض الأمكنة كما مضت تفاصيلها في الصفحات السابقة.

مما يجب التنبيه إليه أن المباحث والقضايا العلمية تنقسم إلى قسمين:

١- القضايا التي تتحدد في النظريات فحسب ويستحيل تجربتها أو مشاهدتها، وبتعبير أصح التي تعجز التجارب الفعلية عن إثبات صحتها

وصدقها. فليست أمثال هذه النظريات والافتراضات إلا أنها ظنية ووهمية فقط، ولا يقطع بحتميتها يقينا، لأنها دائمة التغيير والتعديل على مر الأيام، وكل يوم يأتي عليها شيء جديد. وهذه التغييرات تلحق على وجه العموم بما يتعلق بالعلوم الفلكية والكونية (COSMOLOGY)، أي خلق الأجرام السماوية وما إلى ذلك من الأمور.

٢- وعلى العكس من ذلك العلوم والمباحث التي تدخل في إطار التجريبيات والمشاهدات العينية لها أهمية من جهة الاستدلال بها والجزم بقطعيتها إلى حد كبير. فمعظم المباحث التي تتعلق بالفيزياء والكيمياء والأحياء يمكن أن تعد من العلوم القطعية باعتبار مظاهر الأشياء الظاهرية دون بواطنها.

والحقيقة أن دراسة هذه العلوم تفصيليا -إذا كانت في ضوء آيات القرآن الكريم الأبدية الدائمة- تميز مباحثها القطعية من الظنية.

أدلة الآفاق وعلم الأحياء

لو تأملنا من وجهة أخرى لعلمنا أن دراسة علم الأحياء أصلا عبارة عن دراسة أدلة الآفاق والأنفس[(٤٩)] واستعراضها، كما يطلب منا القرآن الكريم ويهدف إليه فيقول تبارك وتعالى:

---

(٤٩) - إن الدلائل الآفاقية -وفق الآية القرآنية ﴿سنريهم آياتنا في الأفاق وفي أنفسهم﴾ - هي ما انبث على وجه الأرض حولنا من موجودات الكون. والمراد من دلائل الأنفس هي الآيات والمظاهر التي تتعلق بكيان الإنسان ونظمه الحيوية والنفسية. ومن هذه الناحية يدعو تدوين دلائل الآفاق والأنفس إلى دراسة علوم الطبيعة كلها دراسة شاملة مستوعبة.

﴿وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون.﴾ الجاثية: ٤

﴿ومن آياته خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة.﴾
الشورى: ٢٩

﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء، فأخرجنا به ثمرات مختلف ألوانه.﴾ فاطر: ٢٧

﴿وآية لهم الأرض الميتة، أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون.﴾
يس: ٣٢

هذه الآيات المختلفة تشتمل على دلائل الآفاق والأنفس منها ما يتعلق بالحيوان والأخرى بالنبات، ومن خلال دراستها ومطالعتها تتجلى دلائل الساعة الآتية واضحة. ولذلك كانت دراسة علم الأحياء أولى الواجبات والمهام.

أسلوب القرآن الكريم في الاستدلال

إن ترتيب معاني الآيات الكريمات من سورة الأعلى وتناسقها وانسجامها وارتباط ما بعدها بما قبلها، وأهدافها وغاياتها، وفوق ذلك كله أسلوبها البديع الأخاذ الساحر، كل ذلك ينفخ في الذوق روحا جديدا ويثير العقل والوجدان، فيترنح بها القلب والشعور ويندفع العقل معترفا بأن هذا الكلام من الله. وهذا ما أعجز الإنسان عن الإتيان بمثله كلاما خالدا بعيد المرمى عميق التأثير، وأنى له من مثله، بل لو استطاع أن يعبر عمقه بمقاييسه المختلفة كان هو الكثير.

ولفهم حكمة القرآن الحكيم وأسلوبه البديع المعجز لا بد من فهم الارتباط الوثيق والعلاقة الوشيجة فيما بين هذه الآيات، وبذلك يتضح أمامنا غرضه من بيان هذه العلوم:

فقال أولا: ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ بيانا لثلاثة أمور:

(١) لزوم التسبيح (٢) للرب (٣) الأعلى

هذه هي أول ما يتميز بها الإسلام عن الأديان الأخرى، يعني أنه يعرّف الإنسان بخالق الكون من حيث أنه ربه، ومن المقتضيات العقلية أن يقدس ويعظم خالق الكون لربوبيته. ففيه دليل منطقي كما هو استدلال بالربوبية على الألوهية، لم يأت دين من الأديان أو إحدى الصحف السماوية في الدنيا بمثل هذه الدعوة المؤثرة الجذابة إلى المحبة العقلية. وهذا الأسلوب للدعوة أقرب إلى العقل والطبيعة. ثم أوضح منزلة الرب بالنسبة لهذا الكون، فجاء بالقضية الأولى وهي الأمر بالتسبيح بمثابة دعوى، وبالقضيتين الأخريين دليلا على إثبات ربوبيته سبحانه، وكانت هذه الحجة من أقوى الحجج وأكثرها تأثيرا على النفوس بحيث كانت كفيلة بإثبات ربوبية الله تعالى. ولكن شاءت قدرة الله أن تري الإنسان بعض مظاهر ربوبيته الشاملة في هذا الكون بواسطة القرآن الكريم حتى لا تقتصر معتقداته على محض العقل، بل يتدرج من المرحلة العقلية إلى درجة عين اليقين، وإلى حق اليقين. فوضع الكون كله في صورة الدلائل الآفاقية والأنفسية بين يديه بهذه الآيات ﴿الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى﴾

فبعد ما بين الدليل العقلي عرض على الإنسان كافة المظاهر الكونية لتنكشف عليه المشاهد الإلهية في الخلق والتسوية والتقدير والهداية، وتنجلي له مظاهر ربوبيته العجيبة البديعة والباهرة وضوح الشمس في الآفاق والأنفس، ثم لا يسعه تكذيب ذاته العليا لأنها ليست مجرد دلائل عقلية، وإنما هي مشاهدة لنظام الفطرة عينا واجتلاء البصر. وربما يمكن تكذيب القضايا العقلية والعلمية، أما ما حصل بالرؤية والمشاهدة فيصعب تكذيبه.

أما الأديان والصحف الأخرى التي لا تسمن ولا تغني فإنها عاطلة من هذه الأدلة العقلية العلمية

الغرض من علم الأحياء

ليست هذه الدراسة للكون واستعراض قوانين الخلق والتسوية والتقدير والهداية إحقاقا لمصداقية الآية الكريمة ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ فحسب، بل ذلك كله من الأهداف الأولية والغايات الأساسية لعلم الأحياء وعلوم الطبيعة الأخرى من وجهة النظر القرآنية والإسلامية. فالقرآن الكريم لا يكتفي بالحث الشديد والدعوة الأكيدة إلى دراسة علم الأحياء والعلوم الأخرى فقط، بل ويحدد الموضوع والهدف كذلك إضافة إلى ذلك. فانه لا يريد أن يحدث ثورة صالحة بنّاءة في حياة الإنسان برفع مستواه الفكري والعقلي فحسب، ولكنه ينكر عليه النظريات الباطلة والأفكار الضالة ويمنعه من الوقوع في المتاهات ومجاهيل المظاهر المبعثرة بين سمعه ومرآه بتوجيهه إلى جهات صحيحة مستقيمة في دروبه التي يسير

عليها. ومن بواعث الحيرة أن القرآن الكريم ينجز كل ذلك بعدة كلمات وجيزة، ويؤدي جميع الأهداف ويصل إلى هذه الغايات في فقرتين أو ثلاث بأسلوب جامع، لا يترك لعدم الاقتناع مجالا ويروي الغليل تماما.

الخالق الفعال

قد سبقت في الصفحات الماضية الآيات والدلائل على ربوبية الله خالق الطبيعة وفاطر السماوات والأرض، وأوجزنا استعراض نوعية هذه الدلائل. ومن الجدير هنا أن نتعرض لهذا البحث إجمالا من ناحية أخرى، وهو أن هذه الخلائق بجوانبها المنوعة ومظاهرها المختلفة وخصائصها المتميزة تكنّ في بواطنها اشتراكا وتعاونا محيرين. لا فان ظاهرة نظام التعاون المشترك التي تقدمها هذه الألوف الألوف من الخلق باختلافاتها الظاهرية والباطنية، ترى جميع أنواع الأحياء في الكون إزاء هذه الظاهرة كقطع وأدوات لماكينة عظيمة، لا يمكن تشغيلها بدون هذا التعاون والاشتراك ولو يوما واحدا. ولو لم يكن لها صانع ومدبر استحال أن يوجد هذا الانضباط والتصميم عفوا، ولن تتركب هذه القطع والأدوات من تلقاء نفسها بدون سائق أو ميكانيكي بهذه الصورة المذهلة. ومن المعلوم بداهة أن من ذهب إلى صدفية هذا الكون وتلقائيته فقد شهد على نفسه بالسفاهة والخفة، لأن شيئا أصغر وأحقر أيضا لا يمكن أن يوجد بدون صانع أو عامل، فمن المستحيل أن يتصور وجود هذا العالم الكبير الهائل بما فيه من آلاف الآلاف من الأحياء والمظاهر العجيبة وبهذا النظم والانضباط عفوا بدون أن تكون وراءها يد محركة أو صانع. فدارسة هذا الكون وتدقيق النظر فيه تفيد

العقل قبل كل شيء، ويرغمه على الإقرار بأن هناك خلاقا فعالا في هذا الكون يخلق ما يشاء ويفعل ما يريد.

الرب العظيم

كما يقول المثل السائر "إنما يعرف الصانع بصنائعه"، فان هناك نماذج مبثوثة لا تعد ولا تحصى لحسن صنعته وبراعته الكاملة في مظاهر الكون والحياة. وكلها تدل بكل صراحة ووضوح على علو خالقها وربها، وتشهد بعظمته وجلاله.

وتظهر ربوبية الخالق وعلوه هنا من اعتبارين: أولا باعتبار أنواع الأحياء والموجودات الأخرى. وثانيا باعتبار الأجرام السماوية ونظامها. فكما أنه يراقب الخلائق الكائنة في الأجرام السماوية ويشرف عليها، كذلك يراقب هذه الأجرام نفسها. وعند النظر فيها بهذا الاعتبار تظهر جوانب عديدة أخرى لعظمته وجلاله بحيث يرصد البلايين البلايين من الكواكب والنجوم والمجرات، ويلزم كلا منها بالقوانين والقواعد المنسقة، لا يتجرأ أي جرم من الأجرام الفلكية أن يخرج من هذا القانون أو يبغي عليه:

﴿كل في فلك يسبحون.﴾

تأملوا قليلا كم يكون من كوكب مثل كواكبنا السيارة أو نجم مثل شمسنا ومجرة مثل مجرتنا في هذا العالم الواسع الزاخر ووسعته اللامتناهية. وطبقا لتقدير عابر تشتمل سلسلة مجرة واحدة على بلايين من النجوم -مثل شمسنا- على الأقل، عندما في عالمنا نفسه يبلغ عدد المجرات

(Galaxies) إلى البلايين، وتقع هذه الأجرام بعضها من بعض على بعد لا يصدقه العقل بل يتصدع الرأس بهذه الأعداد المذهلة.

وهذه الأجرام السماوية اللامحدودة التي لا يحصيها إلا الله لاتتصادم ولا تضل عن أفلاكها ومسالكها. ﴿ذلك تقدير العزيز العليم.﴾.

هل لقوته وجبروته الغالبتين حد؟ بل الحق أن عقولنا القاصرة تعجز عن أن تتصور علوه وعظمته تصورا صحيحا، هو الله الخالق القهار المتعال الذي أودع العناصر والأجزاء المادية طاقة هائلة تقدر على أن تبس الجبال بسا فتجعلها هباء منبثا، وتغير مجرى الأنهار والبحار وتقعد الأرض وتقيم وتتركها ظهرا لبطن. هب، لو حولت مواد هذا الكون بكل ما فيه من الأجرام السماوية إلى طاقة ذرية، فهل من الممكن التقدير الصحيح لهذه القوة العظيمة التي تحصل بمجموعها. وعلى معادلة آئن استائن (E=MC2) انه بتحويل رطل واحد من وزن المادة إلى طاقة ذرية يحصل من القوة ما يحصل بإحراق ٢,٨ بليون رطل من الفحم. فما مدى قوة الله الذي أودع في خلقه مثل هذه الطاقات الهائلة؟ هل يمكن أن يتصور أحد أن يتعرى من القوة من أعطى خلقه هذا القدر العظيم من القوة؟ وبديهي أن القوة لا بد منها لإيجاد القوة. وقوة الخالق تفوق دائما على قوة المخلوق، بل قوته أشد وأكبر من قوته بمرات. ثم إن صانع الماكينة ومخترعها يقدر على كسرها وفكها، وبالتالي على تركيبها وإعادتها لمرة ثانية.

وقد وردت في القرآن الكريم في غير مكان واحد صفاته جل وعلا بكلمات مختلفة، منها العزيز، والغالب، والعلي، والقدير، والجبار،

والمتكبر، والقهار، والمتعال، والأعلى وما إلى ذلك من أسماء وصفات، إلا أنها كلها حسب المستوى الإنساني والحوار البشري وللتفاهم فيما بينهم، وتحمل تصورات محدودة فقط لفهم عظمة الله الصحيحة وإدراك حقيقة مجده. وليست هي مقاييس تحيط بكل المعاني التي يتصف بها الخالق تعالى. والحق الذي لا مراء فيه أن إدراك حقيقة العظمة والعلو ليس في وسع الإنسان، ولضيق فهمه وقصر نظره لا يستطيع أن يصل إلى عمق معانيها وبعد مراميها.

والخلاصة أن الله سبحانه أشعر عباده وجميع بني آدم بذكر صفة "الأعلى" للرب بأنه من العلو والرفعة والعظمة بمكان فوق جميع الدرجات وعلى آخر نقطة تحسر عنها الأبصار. وما أحسن قول من قال: "إن أصل المعرفة إنما هو الاعتراف بالعجز".

ومما لا شك فيه أن حقيقة هذا التصور الرفيع السامي لا تنكشف إلا بدراسة الكون وتصفح أوراق الطبيعة. ولذلك قيل:

﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء.﴾ فاطر: ٣٨

معنى الربوبية

ولما كان هذا النظام وعالم الحياة كلاهما يسيران تحت نظام شامل للربوبية كأنهما وحدة، وهذه الوحدة تدل على أنه هو الرب وحده لهذا الكون كله. وكما أنه رب جميع الأشياء والمظاهر المختلفة، فهو كذلك رب السماوات والأرض وجميع الأجرام الفلكية. كما يقول سبحانه وتعالى:

﴿رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق. ﴾ الصافات: ٥

ومعنى "الرب" في اللغة هو "إنشاء الشيء حالا فحالا إلى حد التمام".[٥٠] وهذا المفهوم كما ينطبق على عالم الحيوان والنبات يصح كذلك تماما في عالم الجماد والسماوات نفسه. والتفصيل يحتاج إلى مجلدات ولا تسعه هذه العجالة.

وعلى كل حال، فان الرب هنا فيما يتعلق بنظام الخلق والتسوية والتقدير والهداية هو من يقوم بإنشاء جميع المخلوقات من ذرة صغيرة إلى كواكب النظام الشمسي والفلكي على قوانينها الطبيعية والفطرية ويبلغها إلى حد التمام والكمال تدريجيا، وبذلك يرى جميع الخلق محتاجا فقيرا وخاضعا أمامه وهو غالب على الكل بحكمه، ومسيطر عليه بقدرته وبأمره ونهيه:

﴿وله من في السماوات والأرض، كل له قانتون. ﴾ الروم: ٢٦

ترنيمة الفطرة

لما ثبتت ربوبية العلي القدير فلا محالة من الاعتراف بألوهيته وهو السجود في جنابه تعالى وإخضاع النفس له بإخلاص العقيدة بأنه وحده حقيق بالعبادة، والحمد له والثناء عليه دائما مع الاعتراف بالعبودية والعجز والضعف في الإنسان.

---

(٥٠) - المفردات في غريب القرآن، ص ١٨٤.

ولذلك كان من طرائق التعليم الفطرية في القرآن الكريم أن يأمر الإنسان أن يتغنى بحمده سبحانه والثناء عليه والتواضع له. وأحسن هذه النغم والأغاني ما يحصل بدراسة الكون والفطرة واستقرائهما -كما تفيد الآيات الكريمات- والذي ليس مبنيا على العقل والمنطق فقط، ولكنه من أعماق القلب، مصدره الوجدان والعاطفة بعد مشاهدة الطبيعة، فينشق هذه العواطف ترنيمة من أعماق قلب المشاهد للفطرة في صورة "سبحان ربي الأعلى"

وهذا هو السبب في أن جعله الله تعالى في أعلى قمة لعلامة العبودية، وجعله جزءا لا يتجزأ من الصلوات الخمس، وشرفه بالقبول لديه كوسيلة للثناء عليه، كما أن هذه الكلمة للحمد والثناء تستحق هذه المكانة عقليا. ومن المصادفات الحقة أن ما ادّعاه القرآن الكريم في البداية بقوله: ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ يتشكل في صورة "سبحان ربي الأعلى" عند دراسة الكون والطبيعة. وهذا هو الآخر من الدلائل البينة الواضحة على أن القرآن صحيفة الله الفطرية والإسلام دين الله الموافق للطبيعة.

تصور الربوبية و سعة معناها في الإسلام

كانت هذه هي حقيقة الربوبية وقصتها الحافلة بالدروس والعبر، التي لا يمثل تصورها الحقيقي الصحيح في هذا الكون إلا الإسلام، بدون أن يشاركه في هذا الوصف المميز أي ديانة في العالم. ولا عجب فان الإسلام دين الفطرة وحافل بالعجائب، وجميع أموره تحمل طابع حب الصدق والانفراد والبداعة. فدعوته من أولها إلى آخرها تشتمل على الربوبية. فانه عرّف الإنسان بخالقه لأول مرة وقبل كل شيء من حيث أنه رب الكون بقوله: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ الذي هو فاتحة كلام الله وغرة كتاب الحكمة.

هذه النوعية للدعوة الإسلامية مسايرة للعلم تماما عقليا وطبيعيا وبكل جهة. وقدمت المسيحية على العكس من ذلك تصور الأب والابن لإيضاح علاقة الإنسان بخالق الكون. وهذا التصور ناقص ومحدود جدا، ولا ينطبق إلا على الطبقة الإنسانية فقط، بصرف النظر عن المفاسد التي تنتج عن هذا التصور والعقيدة الأساسية عندها. أما الإسلام فقد خالف ذلك بتقديم تصور شامل وعالمي بكلمة "الرب" يحيط بجميع الخلائق وأنواعها في العالم، حتى الأجرام السماوية جمعاء. وبذلك لا يخرج شئي من الأشياء

أو مظهر من المظاهر في العالم المنوع عن دائرة الربوبية، سواء كانت ذرة صغيرة أو كرة سماوية، حشرة كانت أو فراشة حقيرة، فيلا كان أو وهيلا - أضخم أنواع الأسماك- كلها سائرة دائبة تحت قانون الفطرة والربوبية، تنشأ وتكبر حتى تبلغ حد الكمال تحت إشرافه ومراقبته المحيطين. هو الذات العلية رب الجميع ومدبر العالم.

الخلاصة أن تصور الإسلام في الربوبية جامع شامل قائم على الحق.

﴿رب السماوات والأرض وما بينهما العزيز الغفار.﴾ ص: ٦٦

﴿فلله الحمد رب السماوات ورب الأرض رب العالمين.﴾
الجاثية: ٣٦

﴿فلا أقسم برب المشارق والمغارب.﴾ المعارج: ٤٠

﴿قال: رب المشرق والمغرب وما بينهما.﴾ الشعراء: ٣٨

﴿وهو رب كل شيء.﴾ الأنعام: ١٦٤

تتبين حقيقة هذه الربوبية التي قدمها الإسلام ونوعيتها الصحيحة في ضوء العلوم الحديثة التي حققها العلم مؤخرا، وتتضح وضوحا كاملا وتتجلى آيات الربوبية التامة وجوانب الإحسان والامتنان على الخلق بوجه خاص مما يأخذ باللب ويحير العقل بعد دراسة علم الأحياء. ومن هذه الناحية تتأكد ضرورة دراسة البيولوجيا مع دراسة العلوم الطبيعية الأخرى للاستعراض الصحيح لتصور الربوبية الذي جاء به الإسلام.

جوامع الكلم

هذه ملاحظات ذكرتها كما تيسر لي، وساعدني علمي المحدود، منحصرة في بعض الكليات والمبادئ، وإلا فالإنسان عاجز حقا عن استيعاب جميع العلوم والمعارف الواردة في الكلام الإلهي، والإحاطة بكل حكمه ونكاته. وليس بوسعه أن يدعي بمثل ذلك، اللهم إلا أنه يستطيع أن يغترف منه حسب ما يسعه ظرفه، ولا تنقطع شكواه من قصر الذيل وضيق الجيب وشدة اللهف وحر الظمأ.

فهذه الآيات العديدة الموجزة كما تحكي قصص الكون وماهيته تروي حقيقة ربوبية خالق الكون الشاملة في آن واحد، كما جاء فيها موقف الإنسان وحالته وعلاقته بخالق السماوات والأرض، وهي تحمل دعوة الإنسان إلى النظر في الكون، وتذكر القوانين والأسس التي تعمل في نظامه، كما تسلط الضوء على الأغراض والأهداف من دراسة الطبيعة. وكذلك تنبه للنظريات الضالة والأفكار الهدامة وتشير إلى معالم الطريق الحق، وتدعو الإنسان إلى طاعة الخالق وإتباع الرب الكريم، وتبين حقيقة الخالق وتذكر صفاته العظيمة. وفيها رد كامل للمادية وإبطال للشرك والمشركين، وفيها دلائل عقلية، وذكر آيات كامنة في الأنفس والآفاق. بل لو دقق النظر يتراءى فيها ذكر الرسالة والمعاد وإثبات كل منهما كما تبرهن عليهما الآيات التالية. فلم تُهمل هذه الكلمات المعدودة أية حقيقة أساسية.

﴿سبح اسم ربك الأعلى ، الذي خلق فسوى ، والذي قدر فهدى .﴾ بل اجتمع فيها الدين والدنيا معا ، بل إنها تحوي تصورا جامعا وجميلا رائعا لامتزاجهما .

ثم بعد ذلك هي بمجموعها ادّعاء عظيم بمجموعة من الدلائل الكثيرة التي لا يستطاع أن ترد من جهة العقل والفطرة . وأكثر من ذلك غرابة أن هذه المجموعة من الكلمات العديدة التي لا تتجاوز أربع عشرة كلمة تدع العالم الإنساني مذهولا مشدوها بأسلوبها البديع النادر للتعبير عن المقصود من حيث تركيبها وترتيبها . وفوق ذلك إنه نغم ديني سرمدي ، مما أدى فصحاء العرب وعباقرهم بل كل الأنواع البشرية إلى الشعور بالعجز عن الإتيان بمثله ومعارضته في كل دور من أدوار التاريخ :

﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .﴾ الإسراء : ٢٨

هل يمكن أن توجد هذه الروائع القرآنية وهذه الجواهر النفيسة النادرة في كلام البشر؟ وهذا هو الفارق بين كلامه تعالى والكلام الإنساني . وهذا هو معنى كون القرآن جوامع الكلم ؛ أي الكلام الذي يضم كنوز الحقائق والمعارف كلها على إيجازه الشديد .

والحديث الذي رواه مسلم -رحمه الله- في صحيحه بصدد بيان خصائص النبوة المحمدية ، جاء فيه ذكر القرآن بوصفه جوامع الكلم ، وأن هذا الوصف من خصائصه الأولية ، كما أنه في مقدمة خصائص نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- :

"عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: فضلت على الأنبياء بست، أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهورا ومسجدا، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون". [٥١]

وجعل الإمام النووي -رحمه الله- الحديث الشريف أيضا مصداقا لجوامع الكلم فيما دون القرآن.

قال الهروي: "يعني به القرآن جمع الله تعالى في الألفاظ اليسيرة منه المعاني الكثيرة وكلامه -صلى الله عليه وسلم- بالجوامع قليل اللفظ كثير المعاني." [٥٢]

---

(٥١) - الصحيح لمسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

(٥٢) - الصحيح لمسلم مع شرحه للنووي، ١/ ١٩٩، المطبعة الرشيدية، دلهي، ١٣٧٦.

مظاهر صفات الله تعالى

هلم نشاهد من جهة أخرى جانبا من الإعجاز الكامن في جوامع الكلم هذه ومظهرا من سحر الكلام الإلهي وما تتضمنه هذه الكلمات الأربع عشرة من كنوز العلم والعرفان ويتموج فيها بحر المعاني والمفاهيم، والأسرار والمعارف التي يكشفها النظر الدقيق والتفكير العميق.

وكما تعلمون أن هذه الآيات ﴿سبح اسم ربك الأعلى، الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى.﴾ تشتمل على أربع عشرة كلمة.

والستة فيها من الحروف وأسماء الضمائر والموصولات فليست من الأهمية بمكان تحله الثمانية الأخرى، وهي الأسماء والأفعال، فهي على أعلى قمة من الأهمية والقيمة. ويكون ترتيبها كالآتي:

١- سبح يدل على صفة السبحانية وتزكّيه من كل عيب ونقص.

٢- اسم يدل على صفة السمو.

٣- رب يدل على صفة الربوبية.

٤- الأعلى يدل على صفة العلو

٥- خلق يدل على صفة الخلق.

٦- سوى يدل على صفة التسوية.

٧- قدر يدل على صفة التقدير.

٨- هدى يدل على صفة الهداية.

الكلمات الأربع الأولى تتعلق بالخالق والأربع الأخرى بالخلق. ولكن الكلمات الأربع الأخرى التي تتعلق بالمخلوق لو عمق النظر فيها بدت أنها تدل كذلك على صفات العلي القدير، وهي الخلق والتسوية والتقدير والهداية، فإنها تتعلق أصلا بالخالق من حيث أن الخالق مشتق من الخلق والمسوّي من التسوية والمقدّر من التقدير والهادي من الهداية. فكلها من هذه الناحية من صفات خالق الطبيعة وفاطر الكون. وبذلك فهذه الثمانية كلها متعلقة بالخالق، كأنها ذكرت للخالق وحده أولا وآخرا، ولبراعته الفائقة من كل وجهة:

﴿هو الأول والآخر﴾

وإذا رأينا من وجهة نظر أخرى وجدنا الكلمات الأربع الأولى وردت في صفاته العالية والأربع الأخرى تدل على صفاته الكمالية أو الفعلية. وبعبارة أخرى، إن الصفات والكلمات الأربع الأولى مجرد دعوى، والأخرى دلائل عليها ودعوة لبني آدم لمشاهدة أفعاله وصنائعه كوسيلة للتوصل إلى صفاته العالية وإدراكها، وبالتالي يزداد العلم والإيمان واليقين.

والحقيقة أن نماذج صنع الله تعالى في خلائقه وموجودات الكون بأشكالها وألوانها مبثوثة مبعثرة حول جوانبنا، بحيث لا تعد ولا تحصى. وترتسم نقوش العظمة والجلال والكبرياء في قلوبنا بمشاهدة حسنها وبهائها

وصنعها البديع وجودتها وصفائها ولطافتها ومتانتها واستحكامها. وما علم الطبيعة إلا استعراض خلق الله واستقراءه ودراسته التفصيلية ومشاهدة ما فيه، ولا ينبغي أن يكون الهدف الهام الأساسي من تحصيل هذا العلم عند المسلم إلا ما يهدي إليه القرآن نفسه.

الموافقة بين الكون والقرآن

ومن الجوانب البديعة لدراسة الكون والقرآن أنهما يتوافقان فيما بينهما توافقا كاملا بعدة وجوه، مثلا كما أن الإنسان يتحير عقله ويشعر بأنواع من العجز والمسكنة عند ما يشاهد الأحوال والكوائف المذهلة للعناصر المادية المختلفة (ELEMENTS) والأجزاء المركبة من هذه العناصر، كذلك يتبلد عقله ويتصدع فكره ويحس في نفسه الكلالة ويشعر بالضعف عند ما ينظر في الألفاظ والكلمات التي اختارها القرآن، وفي ترتيبها وتناسقها وارتباط بعضها ببعض، والعلاقة التامة فيما بينها. وبتعبير آخر كما أن الإنسان يلاقيه الدهشة والانبهار عند ما يشاهد المادة التي خلقها الله ويرى عناصرها مختلفة الألوان، فكذلك يبهت عقله عند ما يصادف تلون أساليب القرآن المنزل من الحكيم العليم. وليس ما أقول من نوع الشعر والمغالاة، وإنما هي حقيقة واضحة وصدق لا يعترف به إلا من رزق البصيرة والنظر والذوق السليم وجمع بين الصنفين من العلم والمعرفة واستوعبهما استيعابا كاملا.

وبحق، إن القرآن حينما هو كلام الله المبين، فهذا الكون ومظاهره آيات على صفته الخلاقية وممثلة لها، فكيف يمكن أن يكون بينهما نوع من التعارض والتخالف؟ بل لو تأمل الإنسان فيها لانكشف عليه أنه كما يجب

لفهم القرآن والإلمام بعلومه، معرفة ترتيب الألفاظ وتنسيقها والارتباط بينها وعلاقة بعضها مع الآخر وما لا تتضح بدونه حقائق القرآن ورموزه، كذلك يجب لمعرفة ظواهر الكون ومظاهره دراسة صنعها وبنيتها ونشأتها وتحليل عناصرها وأجزائها وخصائصها وانفعالاتها وتأثيراتها ببالغ من الدقة والعمق، ولا تنكشف بدونها ربوبية الله تعالى وصفة خلاقيته وحكمة خلقه. وبالجملة تتفتح أبواب المعارف والأسرار بموالاتهما وموافقتهما وتنزل معرفة الله مدرارا، وهي الهدف المنشود والغرض المطلوب.

عظمة سورة الأعلى

كانت هذه عدة آيات من سورة الأعلى اكتفيت بشرح موجز لها وبيان بعض الكليات والأصول منها. وقد بقيت فيها جوانب لم أتعرض لها حذر الإطالة والإسهاب لما لا تسعه هذه العجالة. والحقيقة أن تفسير هذه الكلمات الأربع عشرة وتفصيلها بمعنى الكلمة يضيق عنها صدر الموسوعات والمجلدات الضخام ولو بلغت أربعة عشر ألفا أو أربعة عشرة مليونا. وذلك -كما سلف- أن جميع العلوم والفنون والملايين من أنواع الأحياء وخصائصها النوعية والتفاصيل الجزئية لكل من هذه الأنواع يمكن أن تقدّم تحت عنوان هذه الآيات، كما أن جميع الأجرام السماوية وأحوالها وكوائفها الطبيعية والتي لا يعلم عددها إلا الله والتي تبلغ ملايين البلايين أو أكثر تندرج تحت تفسير هذه الآيات. فالتفسير الكامل لهذه الآيات ليس في مكنة الإنسان، ولا تستطيع المكتبات الكبار أن تحيط بها. فليس في قوله تعالى أي مبالغة حين يقول:

﴿قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا.﴾ الكهف: ١٠٩

وقد سهّل لنا اليوم تقدم العلم الهائل فهم المعاني لمثل هذه الآيات. ولكن صدور مثل هذه الدعوى التي تنير سبيل الحق والصدق على لسان نبي أمي صلى الله عليه وسلم قبل أربعة عشر قرنا عند ما كان التصور عن الكون ضيقا محدودا ما هو إلا من صنع علام الغيوب. ولم تبق لنا حاجة إلى الدلائل والشواهد التاريخية الخارجية لإثبات صدق القرآن، بل دلائله الداخلية الواضحة على صدقه كافية شافية.

ولأجل ذلك كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يحب هذه السورة وكان مما يقرأها في صلواته، بل كان يرغب الصحابة -رضوان الله عليهم أجمعين- في قراءتها ويحثهم عليها.[(٥٣)]

وروى الإمام أحمد -رحمه الله- في مسنده عن عقبة بن عامر الجهني -رضي الله عنه-: لما نزلت ﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾ قال لنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "اجعلوها في ركوعكم"، فلما نزلت ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ قال: "اجعلوها في سجودكم".[(٥٤)]

وعن ابن عباس -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان إذا قرأ ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ قال:

---

(٥٣) - تفسير ابن كثير، ٤/ ٤٩٩.

(٥٤) - نفس المرجع السابق.

سبحان ربي الأعلى. وعن عبد خير قال: سمعت عليا قرأ ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ فقال: سبحان ربي الأعلى.[٥٥]

وعن ابن إسحاق الهمداني أن ابن عباس كان إذا قرأ ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ يقول: سبحان ربي الأعلى.[٥٦]

النشيد المشترك بين الفطرة والشريعة

إن ما يحمد السلمون ويثنون على خالق الكون بهذه الأناشيد الأبدية السرمدية "سبحان ربي العظيم وسبحان ربي الأعلى" في صلواتهم الخمس لَدليل على الانسجام التام مع نظام الفطرة وترنيمه. وبعبارة أخرى إن كل ذرة من الكون تؤيد عبادة المسلمين الفطرية وطريقة تسبيحهم. بل هي نفسها تتجاوب معهم في هذا التناشد والتناغم. لأن هذه الآيات ونظم ألفاظها وتركيب كلماتها وما قبلها وما بعدها تسفر عن نتيجة منطقية، وهي أن جميع موجودات الكون التي تتصف بهذه الصفات من كل من الخلق والتسوية والتقدير والهداية، تسبح لله وتهلل باسمه وتلهج بذكره. كما توضح هذا المبدأ الآيات الأخر، قال تعالى:

﴿يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم.﴾ الجمعة: ١

ولو شققت قلوب هذه المظاهر في الكون لسمعت هتافات التسبيح

---

(٥٥) – نفس المرجع السابق.

(٥٦) – نفس المرجع السابق.

والتهليل لخالق العوالم ومالك الكون من أعماقها ومجامعها. ويمكن ولا نستبعد أن يكون لها لسان القول مع لسان الحال، وإن لم نشعر بذلك. فقد قال الله عز وجل:

﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم.﴾
الإسراء: ٣٣

﴿ألم تر أن الله يسبح من في السماوات والأرض والطير صافات، كل قد علم صلاته وتسبيحه.﴾ النور: ٤١

لم يتوصل العلم الحديث بعد إلى كشف حقيقة وجود لسان القول لمظاهر الكون من وجهة نظر علم الطبيعة. وليس مما يستغرب أن تكشف البحوث العلمية الستار عن هذه الحقيقة الخفية في يوم من أيام المستقبل القريب. وفي العصر الماضي القريب قد أدهش العالم الهندي الشهير "السير جغديش جندر بوس" دنيا العلم الطبيعي باكتشاف العواطف والانفعالات التي توجد في النبات من الحزن والسرور والإحساس والإدراك، كما يوجد ذلك في الحيوان، وذلك في ضوء تجاربه الشخصية،[٥٧] وقد بدأت الدراسات والبحوث تتقدم رويداً رويداً في هذا المجال.

خلاصة البحث

اتضح من هذه الحقائق وضوح الشمس في منتصف النهار عمق العلاقة ونوعية الارتباط بين هذه الآيات الكريمات وعلم الأحياء والعلوم الطبيعية

---

(٥٧) - للمزيد من التفاصيل راجع Great Men of India، مقال البروفيسور جي. سي. غهوش (J. C. GHOSH) على السير جغديش جندر بوس (JAGDISH CHANDRA BOSE).

الأخرى. كما تبين منها أن فهم هذه الآيات وغيرها مما يشاكلها ببصيرة وإتقان، ثم تفسيرها حسب العقلية السائدة والفكر الجديد لا يتسنى كل ذلك إلا بعد النبوغ والتمهر في هذه العلوم.

وتحصل لنا الفوائد الآتية بوجه خاص من تحصيل هذه العلوم وتفسير الآيات القرآنية وشرحها في ضوئها:

١- يسهل استنباط وتهيئة الأدلة العلمية الكونية ضد الإلحاد واللادينية. وعلى سبيل المثال فانه يعرض لنا كثير من المواطن والوقفات في مباحث العلوم الطبيعية لا يمكن فيها توجيه الأسباب والعلل الظاهرة، ويضطر الإنسان إلى الإيمان بذات غيبية ومسبب لجميع الأسباب، فيمكن رد المذهب المادي بالدلالة على هذه المواطن في ضوء توجيهات الإشارات والكنايات القرآنية والحقائق العلمية الحديثة؛ كما قال سبحانه وتعالى:

﴿وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون.﴾ يوسف: ١١٥

٢- تتجلى مناظر روحية بهيجة وآفاقية لحكمة الله تعالى في الخلق وصنعه الرائع، بعد دراسة أشكال الحيوانات والنبات وطبائعهما، وبذلك تتكشف عيانا حقيقة نظام ربوبية الله تعالى الذي نفذه في كل شيء؛ كما يدل عليها قوله تعالى:

﴿صنع الله الذي أتقن كل شيء.﴾ النمل: ٨٨

وقوله تعالى: ﴿الذي أحسن كل شيء خلقه.﴾ السجدة: ٧

٣- يمكن تدوين الأدلة العلمية (أدلة الآفاق والأنفس في مصطلح القرآن) التي يتضح بها أن القرآن الكريم حق وأحكامه صدق في جانب، وتزول شبهات المنكرين والمعاندين وشكوكهم وتتهيأ الردود على اعتراضاتهم في جانب آخر. وبالتالي تجتث جذور الشرك والإلحاد والمذهب المادي وعبادة المظاهر وغيرها من المعتقدات الباطلة والأفكار المنحرفة الزائغة. وهذا هو معنى قوله تعالى:

﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق.﴾ حم السجدة: ٥٣

٤- يظهر نوع جديد من علم الكلام عبر العصور وفقا لمتطلباتها، ويجب تدوينه وتهذيب أصوله على علماء الإسلام وجوب كفاية. وهكذا يقتضي كل عصر تدوين الأدلة العلمية الكونية من جديد وفي أسلوب حديث، حسب اقتضاء كتاب الله تعالى بالتدبر في آياته الخالدة الأبدية واستعراض العلوم العصرية كلها، وإنجاز هذه المهمة هي مسئولية علماء الإسلام:

﴿فبشر عباد، الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب.﴾ الزمر: ١٧ - ١٨

فالحاجة أكيدة إلى تعميم العلوم الطبيعية، وخصوصا علم الأحياء وترويجها في مدارسنا الإسلامية عموما. وأشد من ذلك أن تعلق لوحات مكتوبة فيها هذه الآيات الابتدائية من سورة الأعلى بحروف كبيرة واضحة في جميع مدارس العلوم العصرية، وترسخ مفاهيمها ومطالبها في أذهان

جميع طلاب العلوم الطبيعية. فان هذه الآيات لا تعطي الإنسان وقفة تأمل، وتقدم تصورا جامعا شاملا مترابطا كاملا عن الكون فحسب، بل تمثل هاديا ورائدا، وتقوم بدور فعال في مراحل النمو العقلي والتقدم العلمي في شتى أطوار الفكر والنظر:

﴿هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون.﴾ الجاثية: ٢٠

الفهارس

(رتبها جميل الرحمن الندوي)

فهرس الآيات القرآنية

(مرتبة حسب ترتيب ورودها في الكتاب)

الآية الكريمة	السورة	الصفحة
ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون.	الزمر: ٢٧	١٤
ولقد صرفنا في هذا القرآن ليذكروا.	بنو إسرائيل: ٤١	١٤
سبح اسم ربك الأعلى، الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى.		١٦
والذي أخرج المرعى، فجعله غثاء أحوى.	الأعلى: ١-٥	١٧
إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له.		٢٢
إن ربك هو الخلاق العليم.		٢٢
أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم، قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار.	الرعد: ١٦	٢٤
واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون، ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا.	الفرقان: ٣	٢٥
سبح اسم ربك الأعلى، الذي خلق فسوى.		٢٥
إنا كل شيء خلقناه بقدر.	القمر: ٤٩	٣٢
وكل شيء عنده بمقدار.	الرعد: ٨	٣٢

الآية الكريمة	السورة	الصفحة
الر ، كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير.	هود : ١	٣٥
أ أنتم أشد خلقا أم السماء بناها ، رفع سمكها فسراها.	النازعات : ٢٧-٢٨	٤١
يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك ، في أي صورة ما شاء ركبك .	الانفطار : ٦-٨	٤١
ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين.	المؤمنون : ١٣ - ١٤	٤٢
نحن خلقناهم وشددنا أسرهم.	الدهر : ٢٨	٤٢
وخلق كل شيء فقدره تقديرا.	الفرقان : ٢	٤٣
لا يكلف الله نفسا إلا وسعها.	البقرة : ٢٨٦	٤٤
وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ، ذلك تقدير العزيز العليم .	الأنعام : ٩٦	٤٦
والقمر قدرناه منازل .	يس : ٣٩	٤٦

الآية الكريمة	السورة	الصفحة
والله يقدر الليل والنهار.	المزمل : ٢٠	٤٦
وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام.	حم السجدة: ١٠	٤٦
من نطفة خلقه ، فقدره .	عبس : ١٩	٤٦
قد جعل الله لكل شيء قدرا .	الطلاق : ٣	٤٦
قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.	طه : ٥٠	٤٨
وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها.	هود : ٦	٥٦
ذلك تقدير العزيز العليم.	حم السجدة: ١٢	٥٧
الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل.	الزمر : ٦٢	٥٧
ألا له الخلق والأمر.	الأعراف : ٥٤	٥٧
وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون.	الجاثية : ٤	٥٧
سبح اسم ربك الأعلى ، الذي خلق فسوى.	الأعلى : ١-٢	٥٨
إن الله فالق الحب والنوى ، يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ، ذلكم الله فأنى تؤفكون .	الأنعام : ٩٥	٥٨
قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين.	النمل : ٦٤	٦١
إن ربك هو الخلاق العليم.	الحجر : ٨٦	٦١

الآية الكريمة	السورة	الصفحة
إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين.	الذاريات : ٥٨	٦٢
وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون.	الجاثية : ٤	٦٧
ومن آياته خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة.	الشورى : ٢٩	٦٧
ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به ثمرات مختلف ألوانه.	فاطر : ٢٧	٦٧
وآية لهم الأرض الميتة ، أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون.	يس : ٣٢	٦٧
كل في فلك يسبحون.		٧١
إنما يخشى الله من عباده العلماء .	فاطر : ٣٨	٧٣
رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق.	الصافات : ٥	٧٤
وله من في السماوات والأرض ، كل له قانتون.	الروم : ٢٦	٧٤
رب السماوات والأرض وما بينهما العزيز الغفار.	ص : ٦٦	٧٧
فلله الحمد رب السماوات ورب الأرض رب العالمين.	الجاثية : ٣٦	٧٧

الآية الكريمة	السورة	الصفحة
فلا أقسم برب المشارق والمغارب.	المعارج: ٤٠	٧٧
رب المشرق والمغرب وما بينهما.	الشعراء: ٣٨	٧٧
وهو رب كل شيء.	الأنعام: ١٦٤	٧٧
قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا.	الإسراء: ٢٨	٧٩
قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا.	الكهف: ١٠٩	٨٥
يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم.	الجمعة: ١	٨٧
وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم.	الإسراء: ٣٣	٨٨
ألم تر أن الله يسبح من في السماوات والأرض والطير صافات، كل قد علم صلاته وتسبيحه.	النور: ٤١	٨٨
وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون.	يوسف: ١١٥	٨٩
صنع الله الذي أتقن كل شيء.	النمل: ٨٨	٨٩
الذي أحسن كل شيء خلقه.	السجدة: ٧	٨٩

الآية الكريمة	السورة	الصفحة
سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق.	حم السجدة : ٥٣	٩٠
فبشر عباد ، الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب.	الزمر : ١٧ - ١٨	٩٠
هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون.	الجاثية : ٢٠	٩١

فهرس الأحاديث الشريفة

(مرتبة حسب ترتيب ورودها في الكتاب)

الحديث الشريف	الصفحة
وعن ابن عباس -رضي الله عنه -أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان إذا قرأ ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ قال سبحان ربي الأعلى .وعن عبد خير قال : سمعت عليا قرأ ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ فقال : سبحان ربي الأعلى .	٨٧
وعن ابن إسحاق الهمداني أن ابن عباس كان إذا قرأ ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ يقول : سبحان ربي الأعلى .	٨٧

المراجع

(الف) المراجع العربية:

١- القرآن الكريم.

٢- تفسير روح المعاني: شهاب الدين آلوسي، دار إحياء التراث العربي.

٣- تفسير الكشاف، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر، طبع طهران.

٤- تفسير ابن كثير: حافظ عماد الدين إسماعيل ابن كثير، مكتبة دار التراث القاهرة.

٥- التفسير الكبير: فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي، المطبعة الحسينيه، مصر، ١٣٢٤هـ.

٦- بيان القرآن: اشرف علي التهانوي، تاج ببليشرز دلهي.

٧- تفسير الجلالين: جلال الدين محلي وجلال الدين سيوطي، عيسى البابي مصر، ١٣٤٦ هـ.

٨- الجواهر في تفسير القرآن الكريم: طنطاوي جوهري، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده مصر، ١٣٥١هـ.

٩- فتح الرحمان (ترجمة القرآن الفارسية وحواشيه): الشاه ولي الله الدهلوي، بومبائي. ١٣٠٤.

١٠- معارف القرآن: مفتي محمد شفيع، طبع ديوبند.

١١- الفوز الكبير، الشاه ولي الله الدهلوي، كراتشي.

١٢- صحيح مسلم : أبو الحسين مسلم بن الحجاج ، دار الإفتاء الرياض ، ١٤٠٠هـ.

١٣- سنن الترمذي : أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

١٤- لسان العرب : ابن منظور الإفريقي ، الطبع الجديد ، بيروت ، ١٩٦٨ء.

١٥- المفردات في غريب القرآن : راغب الأصفهاني ، دار المعرفة بيروت .

١٦- القاموس المحيط ، مجد الدين الفيروزآبادي ، مصر ، ١٩١٣ء.

١٧- المنجد : الأب لويس معلوف ، بيروت ، ١٩٥٦ء.

١٨- مقالات شبلي : شبلي النعماني ، دار المصنفين ، اعظم كره.

١٩- الله معنا : كريس موريسن ، الترجمة الأردية : صلاح الدين أحمد , لاهور ، ١٩٦٥ء.

٢٠- صحيفة "صدق جديد" الأسبوعية (الأردية) ، لكهناؤ ،

(ب) المراجع الإنجليزية:

21- Man the Unknown, Dr. Alexis Carrel, Wilco Publishing House, Bombay, 1959.

22- Asimov's Guide to Science, Pelicon Books, London, 1978.

23- M.E. Ayyar, Outlines of Zoology, Madras, 1976.

24- A. C. Dutta, A Class Book of Botany, Oxford University Press, 1978.

25- A. C. Dutta, Botany for Degree Students, Oxford University Press, 1979.

26- Ronald Duncan, The Encyclopaedia of Ignorance, Pergamon Press, Oxford, 1978.

27- Great Men of India, Edited by L.F. Rush Brook Williams.

المحتويات

الفهارس

ملامح حياة الشيخ محمد شهاب الدين الندوي

الأمين العام للأكاديمية الفرقانية ورئيس دار الشريعة، بنجلور الهند

* ولد في غرة رجب سنة ١٣٥٠هـ الموافق ١٢/ ١١/ ١٩٣١م في مدينة بنجلور بجنوب الهند، وتعلم في جامعة ندوة العلماء بلكناؤ الهند، وفاز بنيل الشهادة بالدرجة الممتازة.
* ثم عكف على تحصيل العلم الحديث بسنوات عديدة، حتى برع فيه وأخذ يكتب على القضايا العلمية والكلامية الحديثة التي لها صلة بارزة بالقرآن الكريم على وجه الخصوص.
* لقد ألف كتبا كثيرة بالأردية والعربية في تحقيق الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة لمقاومة الإلحاد واللادينية والتحديات المادية ضد الإسلام، فصدرت طبعات متواصلة لهذه الكتب القيمة من الهند وباكستان، وترجم بعضها بالإنكليزية وغيرها. وقد بلغ مؤلفاته إلى أكثر من خمسين.
* قد كتب مئات من المقالات العلمية ذات الفكرة التي نشرها أرقى الصحف والمجلات من الهند وباكستان والبلاد العربية.
* أسس المجمع الإسلامي "الأكاديمية الفرقانية" في بنجلور عام ١٩٧٠م، وأنشأ "دار الشريعة" كفرع خاص للأكاديمية لتطبيق الشريعة الإسلامية وإثبات معقوليتها حسب متطلبات العصر.
* قد أنشأ مكتبة إسلامية عامة تشتمل على أكثر من ثلاثين ألف كتاب من أهم مراجع الكتب الإسلامية والعلمية، والتي جمعها بنفسه بعد جولات البلاد المختلفة.

إسلامية العلوم الطبيعية حاجة العصر لنهضة الأمة

الأكاديمية الفرقانية جاهدة في هذا المجال وتدير حركتها بالهند

إن العلوم الطبيعية والأحيائية (Physical & Biological Sciences) ليست فيها شائبة من الإلحاد والمادية في طبيعتها الأصلية، إلا ميول واتجاهات من الماديين الذين يريدون أن يخطفوا المعارف التي كامنة في طبائع المظاهر الكونية لأهدافهم المتحرفة الزائفة، فيحاولون أن يستغلوا الحقائق الكونية في حسابهم بإكراه بالغة. فإنهم يشرحون الحقائق الكونية كأنها تؤيد النزعات المادية. فيبنون عليها الفلسفات المادية والإلحادية لإثارة الفتن بين الناس وإضلالهم عن سواء السبيل. والحق أن هذه المظاهر وأنظمتها لاتؤيد النظريات والفلسفات اللادينية وميولها. بل العلوم الطبيعية ومعارفها لتؤيد الروحية وتناصر أصول الدين الإلهي. فإنها ملائمة لجميع قضايا الدين وأهدافه. ولذلك فإن الله دعا البشر إلى أن يتفكر في الأشياء الكونية ويتفحص عن أنظمتها عن كثب، ثم يُخرج الدروس والعبر التي كامنة فيها إلى حيز الظهور، لكي تكون حجة على المنكرين بالله تعالى. وإن هذه الكينونات وأنظمتها المحيرة لتدل على وجود الخالق ووحدانيته وربوبيته وقدرته الجبارة بدلالات واضحة بنفس الاكتشافات العلمية والحقائق الكونية. وإن هذه الأدلة العلمية أو "الشهادات الكونية" تقضي على النزعات المادية والفلسفات الواهية المزورة دائما. ولذلك قال تعالى: ﴿وَفِيْ الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوْقِنِيْنَ. وَفِيْ أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبصِرُوْنَ.﴾. كما قال: ﴿وَيُرِيْكُمْ آيَاتِه فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُوْنَ.﴾

وهذه الآيات هي الأدلة العلمية الكونية التي منشورة في الأشياء والموجودات الأرضية والسماوية من الجمادات والنباتات والحيوانات والأجرام السماوية. ففي كل من هذه الكينونات دلالات واضحة وإشارات باهرة تدل على

أنها لم توجد تلقائيا، بل هناك يد كامنة تدير أنظمتها بنظام مدهش وقدرة جبارة. فلابد لتحقيق هذه الدلالات الكونية والإرشادات العلمية من النبوغ والتمهر في العلوم الطبيعية والبيولوجية، ثم التطبيق بينها وبين "آيات الله" في إشراف وظلال القرآن الكريم لتكون حجة الله مؤثرة على المنكرين والجاحدين بالله تعالى بنفس اكتشافاتهم. فالحاجة ماسة إلى كسب هذه المعركة وأداء رسالة القرآن حسب مقتضيات العصر. وبذلك المهمة توجد هناك فوائد جمة. فمنها: (١) تحقيق أدلة الربوبية في هذه الكائنات وهي الآيات في مصطلح القرآن الكريم التي مبثوثة في الآفاق والأنفس. (٢) دحض النزعات المادية والفلسفات الضالة. (٣) إسلامية العلوم الطبيعية والبيولوجية. أي تطهير النظريات المنحرفة من العلم، يعني Science. (٤) التطبيق بين الطبيعة وما بعد الطبيعة، من نفس الاكتشافات العلمية الحديثة. (٥) هداية النوع البشري من الوجهة العلمية والفلسفية. (٦) يتكون من هذا العمل علم جديد، وهو علم الكلام الحديث أو الفلسفة القرآنية الكونية. (٧) وهذا العمل الجاد يمهد السبل لنهضة علم الدين ونهضة الأمة.

فإن هذه مهمة عظيمة تحتاج إلى كمال الجدية والرزانة لإنجاز هذه الأهداف والمرامي. وهي فرض على الكفاية ومُلقاة على عاتق الأمة الإسلامية. فإن لم تف بها تكون آثمة من الوجهة الشرعية. لأن الله تعالى أوجب على الأمة إصلاح العالم البشري وتوجيهه، وإخراجه من دياجير الكفر والإلحاد والنظريات الضالة. فنظرا إلى هذه الحاجة الملحة تولت الأكاديمية الفرقانية ببنجلور (الهند) هذه المسئولية. فإن فيها عدة باحثين مكبون على هذا المجال، وعلى رأسهم فضيلة الشيخ العلامة محمد شهاب الدين الندوي، أمين عام الأكاديمية الفرقانية. فلإنجاز هذا العمل الجليل نحتاج إلى المساعدات العلمية والأدبية والمالية من جميع المنظمات الإسلامية في العالم.

من اصدارات الأكاديمية الفرقانية كتاب قيم

التجليات الربانية في عالم الطبيعية

للعلامة الباحث محمد شهاب الدين الندوي

هذا كتاب بديع يبحث عن الأسرار والحقائق التي يحتوي عليها القرآن الكريم في ضوء الدراسات والاكتشافات الحديثة، ويكشف آفاقا جديدة من كنور القرآن ويظهر إشراقاته، ويجلي حقيقة التوحيد والرسالة واليوم الأخر من خلال الآيات الكونية ويقدم الأدلة العلمية الباهرة، لتتم الحجة على النوع البشري مقاومة للإلحاد واللادينية، وهذا الكتاب خير نموذج لإعجاز القرآن المدهش من وجهة كلامية وجواب صحيح لتحدي العصر الراهن، كما هو يمهد السبيل لتحقيق النهضة الإسلامية ويقضي على الفلسفات المادية المنحرفة. فإن هذا الكتاب يوفر للعالم الإسلامي تفكيرا جديدا، ويفتح بابا جديدا لفلسفة القرآن الكريم من الوجهة الكلامية الحديثة لهداية النوع البشري. وهذا خير كتاب أصدرته الأكاديمية الفرقانية بالعربية والإنكليزية والأردية معا. والكتاب يشتمل على المباحث الآتية:

* القرآن الكريم ومظاهر الطبيعة
* مدخل إلى القرآن الكريم من الوجهة العلمية
* الأجرام السماوية تشهد على القيامة
* آيات الربوبية في عالم النبات
* عالم النبات يشهد على وجود الخالق
* الله يتجلى في عالم النبات
* العلم الحديث يشهد بوقوع القيامة
* العصر الفضائي الحديث والطلاوة السرمدية للقرآن الكريم
* الاستنساخ الجيني يصدق المعاد الجسدي

من اصدارات الأكاديمية الفرقانية كتاب هام

أهمية علم الكيمياء والفيزياء

وخطورة النفط والبتروكيميائيات

للباحث الإسلامي العلامة محمد شهاب الدين الندوي

هذا الكتاب يبحث عن المقومات الإسلامية في تطبيق الديانة والمدنية ويكشف عن الصلات بين الدين الإلهي والعلم الطبيعي من وجهات كثيرة. كما يناقش خطورة علم الكيمياء والفيزياء للخلافة الأرضية التي خلق لها الله آدم عليه السلام وعلمه كافة أسماء الأكوان والموجودات، ليسخرها هو وبنوه بعد الوقوف عليها وعلى أنظمتها. ثم يفتش عن النفط والبتروكيميائيات (Petrochemicals) التي لها أهمية بالغة في العصر الراهن في دنيا الصناعات الحديثة. والواقع أن الأمم الراقية تستغل هذه الثروة العظيمة لتخلف المسلمين في إنتاجات البتروكيميائيات، مع أن العالم الإسلامي يملك ثلثي ذخائر العالم من النفط. ويتحدث الكتاب أخيرا عن التضامن الإسلامي للفوز والنجاح في هذا الميدان والتخلص من براثن الأمم الغربية، فيخطط للعالم الإسلامي خطوات فاصلة في هذا الصدد.

من منشورات الأكاديمية الفرقانية، بنجلور (الهند)

بعض أهم كتب أخرى للمؤلف

بالعربية:

١- نهضة العالم الإسلامي في ظلال القرآن الكريم
٢- بين علم آدم والعلم الحديث
٣- التجليات الربانية في عالم الطبيعة
٤- الأدلة العلمية الحديثة على المعاد الجسدي
٥- الاستنساخ الجيني يصدق المعاد الجسدي
٦- أهمية علم الكيمياء والفيزياء: وخطورة النفط والبتروكيميائيات
٧- التقدم في العلم والتكنولوجيا: ضرورة أكيدة من منظور إسلامي
٨- أهمية الجهاد لنهضة العالم الإسلامي
٩- الحاجة إلى إنشاء دار الشريعة في الهند
١٠- مشاهد الربوبية في دنيا النبات

تحت الطباعة:

١- خلق آدم ونظرية التطور والإرتقاء
٢- علم الكلام الحديث: من منظور القرآن
٣- القرآن الحكيم ودنيا النبات

English Books:

1- The Holy Qur'an and Biology
2- Evolution or Creation?
3- Holy Qur'an and the Natural World
4- The Battle of Islamic Shariah in India
5- Cloning Testifies Resurrection
6- Rise and Fall of Muslims in Science
7- Moon Sighting and Astronomical Calculations
8- Need to Institutionalise Zakat
9- Shariah House a Basic Necessity

Forthcoming Titles:

1- Holy Qur'an and the Plant World
2- Qur'an, Science and the Muslims

من منشورات الأكاديمية الفرقانية، بنجلور (الهند)